لعنة الزمرد

الكتاب: لعنة الزمرد
النوع: رواية
تأليف: ياقوت شريط
ردمك: 978-9931-9414-6-0
الإيداع القانوني: جانفي 2018

الناشر: الجزائر تقرأ
8 شارع حساني يسعد، بلدية الجزائر الوسطى
هاتف: 0672301773
إيميل: nashr@dzreads.com

/dzreads
@dz_reads
dzreads.com

الجزائر تقرأ مبادرة شبابية هدفها نشر ثقافة القراءة في المجتمع، منها انطلق مشروع دار الجزائر تقرأ للنشر التي تعنى بالإبداع الكتابي.

شعارنا «نصيبكم بعدوى القراءة»

جميع الحقوق محفوظة ©

ياقوت شريط

لعنة الزمرد

رواية

الجزائر تقرأ

إهداء..

إلى الكبار هاماتهم.. حد الحب.

ياقوت

لطفا..

انتعل حذرك؛ فبين الصفحات شيء من شظايا مبادئ أو أمنيات..

كما بها بعض من مرايا.

لا مكان آخر أهرب إليه. ليت أبي يفتح الباب الآن، ويسارع لنجدتي. لكنّه غير موجود ليفعل.

أمي تتربّص بي كأنّما تصطاد طريدة، تحاصرني من جهة وفي الجانب الآخر للغرفة أخي سفيان المتآمر معها بمكر، أقع بين يديها هذه المرة أيضا، تثبّتني بساقيها بعد أن تقعدني أرضا وتمسكني من شعري لتمشطه بحركة سريعة، غير آبهة ببكائي ومناداتي لـ"أمّا" التي تأتي لنجدتي في كل مرة، فتنتزعني من بين يديها، مطلقة أنواع الوعيد مهددة أمي بعقاب أبي إذ هو عاد للبيت ووشت بها إليه، تأخذني في حضنها؛ تمسح دموعي بكفيّها الحانيين، وبينما هي تفعل ذلك لا تتوقف عن التمتمة. تحتج وتتوعد تارة، وأخرى تطمئنني أن ما من أحد يستطيع مضايقتي مادام فيها نفس، تضع شيئا من زيتها العطري في يدها وتفرك به راحتيها لتمرره على طول شعري. هذا الزيت الذي صنعته بنفسها وخصّتني به من دون أختي أو أمي التي تحاول توسيع نفوذها في الدار مادام أبي غائبا، ففي وجوده يكون له وحده الأمر والنهي حتى أن صوتها العالي يخبو، وتتحول إلى كنّة مطيعة.

كنت أستقوي بجدتي التي تنهي انتقام أمي مني بعد أن أعاندها كما يحصل كل يوم، لم تكن تؤلمني غالبا إذ

تمشط لي شعري، لكن ذلك الإرغامٍ هو الذي ينفّرني من مطاوعتها، أفضّل على الرضوخ مطاردة تنتهي بأن تمسك بي لآخذ نصيبي من العقوبة بقدر غضبها أو تفرغها لي، إلى أن تتدخل جدتي وتنهي المشادّة لصالحي، فتفتح الدرج الأسفل من خزانتها الخشبية العتيقة وتخرج منه ما تسترضيني به من حلوى أو دراهم أو قارورة زيتها العطري التي تدهن شعري منها.

فيهدأ روعي شيئا فشيئا وأسترخي بينما تكمل ضفيرتي، تدير وجهي إليها، تقبلني وتمسح ما تبقى من آثار الدموع.

كم كنت أحب جدتي المشبعة بالسمرة والحب، وحدها تجعل من مشط شعري طقوسا للحنان الذي لا تجد له أمي وقتا أو جهدا ربما. هي التي تركض طيلة النهار خلف ثلاثة أبناء كنت أصغرهم، كانت تلومني على تصرفاتي التي كبرت في نظرها عليها، كبرت باكرا جدا حتى على حجرها مادامت قد حملتني قدماي لأغادره، وغادرته إلى حضن "أمّا" الذي لم أسمح لأحد أن يزاحمني فيه.. لم أكبر على ذلك الحجر يوما ولا على تلك الضفيرة ولا على حكاياتها عن الغريب أخضر العينين الذي جاء من"عنّابة"، من أقصى الشمال، سائحا فتزوج امرأة أصبحت بعد ذلك جدتها والتي قيل أنها سحرته.

جدتي لا تصدق ذلك وترى أن جدتها بادلته حبا كبيرا أبقاه هنا بعيدا في الجنوب في إيليزي ولم يعد إلى دياره بعد ذلك، كان سكان المدينة يلقبونه بالألماني، وقد أورثني جدي الألماني عينيه الأوروبيتين وشعره الأشهب اللّذين لازماني كأيقونة سحر على بشرتي السمراء، وجلبا الأنظار إليّ مذ

كنت طفلة، كأني معجزة تجعل الأحداق تزداد اتساعا والعيون أشد استدارة، معجزة حصّنتها جدتي بخُمسة فضية بها حجر أزرق بارز لم تفارقني أبدا، "خُمسة" كانت كافية لإبقائي بأمان من العيون الحاسدة والأرواح الشريرة الغاضبة، بينما تحكي لي كما دائما عن جدّي الذي كان جزائريا مع لون بشرته وعينيه، أنجب من بنت إيليزي العديد من الأطفال وظل معها حتى فرّق الموت بينهما.

كانت جدتها كما نساء الجنوب شديدة السمرة جعداء الشعر تميزها قامة رشيقة، وحضور قوي، كان الجميع يحبها، لذا ربما أحبها جدي الألماني، لكن النساء لغيرتهن منها أشعن أنها سحرته حتى أنه نسي أهله ومن أين أتى، وبقي معها كل تلك السنين. كنت أستمع إليها كأنما لأول مرة، رغم أني أحفظ تلك القصة بتفاصيلها، إلا أني أحب كيف تحكيها لي جدتي بذلك الحنان والاهتمام، تنظر إليّ تسترجع بي ذكريات طفولتها مع جدّيها، وتستحضر بلون عينيّ قصة حبهما التي أثارت مجامع النساء والرجال في مدينتنا والمدن المجاورة على مر أجيال.

كانت وهي تمرر كفيها على خديّ تتأملني وتقول "الغالية بنت الغالي"، لم أعرف إن كانت تقصد جدها الذي أذكّرها به أم بكرها الذي هو أبي، أبي الغائب في رحلة عمل طويلة بعد أن كان إسكافيا بسيطا يعود للبيت كل مساء بما كُتب له من رزق، كانت حياتنا بسيطة هادئة، إلى أن جاءه أحد معارفه بعرض شراكة، حيث يسافر إلى ليبيا ليأتيه بسلع ويأخذ عمولة على ذلك، كانت السلع مختلفة في كل مرة، لكنها دائما

كانت تأتي في أكياس كبيرة الحجم مخططة ذات سحّاب تخصص للبضائع المسافرة.

توسعت بعد ذلك تجارتهما وصارت سفريات أبي أطول، لم تعد مجرد سفر للاستيراد أو التجارة بل أكبر من ذلك بكثير كما عرفنا بعد ذلك، كان يغيب أحيانا لأسابيع طويلة. فأشتاقه، أشتاق دخوله بابنا المفتوح دوما، كما جميع أبواب إيليزي التي لا تغلق في النهار أبدا، ذلك أنه ما من شيء يخشاه الناس ربما، فيما كانت "كلّة" من القماش تكفي لتبقي النّسوة بعيدا عن العيون بينما يتراكض الأطفال دخولا أو خروجا خلال لعبهم.

***

لم يكن لدارنا شرفات على الشارع، كان لها حوش واسع يتوسط مطبخا صغيرا و ثلاث غرف تنفتح كلها عليه، به كنّا نغسل الملابس وننشر الغسيل، وكانت جدتي تفرش هيدورتها الصوفية حيث تتربع لتغزل الصوف أو لتدق بمهراسها النحاسي بعض الأعشاب للطبخ أو التداوي. في حوشنا كنا نجلس في المساءات ونبيت ليالي الصيف بعد أن نرشه بالماء لتبريده كل عشيّة فيكون جاهزا قبل المغيب، نبسط "الحولي" المزركش وفوقه بساطا كبيرا ليحمل كل منا مخدته ونستلقي نتفرج على السماء المفتوحة، فنتقاسم أنا وإخوتي النجوم بسذاجة بيننا، ونشكل منها رسوما بتمرير أصابعنا عليها، نسمي هذه النجمة أو تلك، ليختار كل منا لنفسه أكثرها بريقا ولمعانا.. كان زمنا يحق للأطفال فيه امتلاك السماء.

في ظل السماء كنا نتسامر على أقداح ال"اتاي" وحكايا جدتي، تتذاكر الأحداث مع أمي، تقسمان أدوار الأميرات والفرسان والغيلان علينا كل حسب حُسن أو سوء سلوكه خلال اليوم أو الأيام الماضية. فيفرح من تُوّج سلطانا أو ابن سلطان، ويكفهرّ محتجا وجه من كان نصيبه دور الغول أو الساحرة الشريرة أمام ضحكات الآخرين. كما كنا أحيانا نترك دور السلطان لأبي، أبي بقامته الفارعة، وعوده النّحيل وثوبه الأزرق. وبسمته التي تضيء وجهه الحالك الملثّم، أشتاق أن يضمني بعد غياب، لأتمسك به بشدة ظنّا منّي أني بذلك أستبقيه، كان هذا ينفع لبعض الوقت، فيبقى لأيام وأحيانا لأسابيع، ثم يعود يرحل ذات ليل. إنّه مثلي لا يحب طقوس الوداع، يفضّل رحيلا هادئا، ليس فيه دموع، إلى أن يأتي الصباح لنكتشف غيابه من جديد، نبكي لأنه لم يأخذنا معه مثلا، لكن ما إن تأتينا أمي بما تركه لنا من هدايا وألعاب وثياب جديدة حتى ينقلب البيت إلى عيد. كنا أصغر من أن نعي ما يحصل، لكنها تعي تلك المشبعة بالسمرة والحب، "أمّا" التي كانت تدعو له وترجوه ليبقى، كأنها تشعر أن خطبا ما سيصيبه ويصيب معه هذا البيت الصغير الهادئ، لكن الذي ينتظره هناك في المجهول كان أكبر من أن يبقى في كل مرة.

أمواج الرمال المقمرة تتمايل في غنج، تتسلق ركبة الهُقّار القاعد منذ الأزل يغازل المغيب، تتمسّح بثوبه الناري المتكسّر على مد النظر، لتستلقي عند قدميه.. وتنام. تنام وتستيقظ إيليزي من دون مساحيق، غير كحل عربي يقطر من عينيها الغائرتين في وجه جنوبي. تتفتح على كوب شاي، ولا تُقلق

صباحها بالجرائد، شعرها ليس بحاجة لترتيب، لأنها مسبقا ربطت بخيوط ملونة ضفائره الإفريقية المقاومة للزوابع.

ما قبل ظهر صيفي، الشمس في قلب السماء، والحر يلفح وجوه من أخّرهم الانشغال عن منازلهم فتسارعوا إليها، وفي تلفازنا ذي القناة الواحدة، الموضوع على طاولة خشبية متوسطة الارتفاع زينت رفها التحتي قطعتان متشابهتان من زهر الرمال، بغرفة بُيّضت جدرانها بالجير، قعدنا نشاهد الرسوم المتحركة، وقعد سفيان، ابن الرابعة عشر، رجل البيت في غياب أبي أو هكذا كان يشعر ويتصرف، يكبرني بخمس سنوات، كان يسير ويتحدث كرجل صغير، يتولى مشتريات البيت وطلبات أمي ويترفع عن لعب وبرامج الصغار التلفزيونية، يفضل تربية حمامات على السطح، والتي قالت عنها جدتي أن وجودها في البيت نذير شؤم.

بوادر الرجولة الباكرة تلك جعلت منه الولد المفضل عند أمه ولأبيه مشروع ذراع أيمن، يتمنى لو يصبحبعد ذلك رفيق سفره وبئر أسراره، هذا ما كان يبدو على وجه أبي وهو يُربت على كتفه كأنما يستعجله أن يكبر، أن يحمل عنه بعض ما يؤرقه، والذي كان أكبر من عدة أكياس مخططة للسلع المهربة.

في بعض الليالي كان يبدو على "أمّا" الشرود الذي يستمر أحيانا أياما لا تفعل خلالها إلا القعود على هيدورتها ونظرها إلى الباب. تنتظر أن يلجه أبي الذي اشتاقت إليه بعد أن طال غيابه أشهرا كاملة على غير العادة، ولا يدري أحد حتى شريكه

"عمي مسعود" لماذا هذا الغياب كلّه وإلى متى، والذي تعود جدتي من عنده أكثر سوءً لقلقه الواضح -إذا هي ذهبت لسؤاله عن أي جديد- فالعمل الذي بينهما أهم مما يبدو كما عرفنا لاحقا. أو تقعد طويلا على سجادتها بعد فراغها من الصلاة وبأصابعها تمرّر حبّات مسبحتها البيضاء، تتمتم بالذكر وتدعو الله أن يرجع إليها عزيزها. كانت أمي تبكي خلسة لألّا تظن جدتي أن مكروها ما قد حدث وأخفي عنها، تبكي لتفرغ قلبها كما تقول، ثم تجفّف دمعها وتعود لتكمل أعمال البيت التي دوما تنتظرها.

لمّا طال غيابه أكثر صارت جدتي تذهب لزيارة الأولياء الصالحين، وتتشبث بالرداء الأخضر الذي غُطّي به كلّضريح من أضرحتهم. تتضرع لله وترجو هذا الوليّ أو ذاك أن يُرجع إليها ابنها. أن يطمئنها عليه في القريب العاجل وتعده بالزيارة وبذبيحة كبيرة و"وعدة" يحضرها كل الأحباب وبأمور غيرها. كنت أقف على مقربة منها وأسمع شهقاتها المتوجعة ورجاءها اللحوح، لم أكن أستوعب بسنواتي التسع ماذا يعني غياب رجل البيت دون خبر، لم أكن أعي القلق المتزايد مع الأيام، الخوف من المجهول يكبر مع سؤال أي قريب عن الجديد، مع دعاء صادق أو مجامل بعودة العزيز الغائب.

كنت أتشبث بدوري بشالها الذي يغطّي رأسها وينسدل على كتفيها وظهرها بسخاء، أتشبث به فتنتبه لي وتجذبني إليها كأنما تعتذر عن إخافتي (ره يفرج ربي يا بنيتي) إنها واحدة من تلك العبارات المقتضبة التي كانت تستعملها حين تشعر

أن ما من حل بيدها فتوكل أمرها إلى الله، تكفكف دمعها وتلملم ذلك الشّال البنيّ الذي تداخلت به ألوان ترابية ونارية كأنما طُبعت على بلل، بعطر عنبره الدائم الممتزج برائحة جسدها. تمسكني من يدي لنمضي إلى البيت على عجل دون أن تضيف شيئًا.

كنت الفتاة المدللة عند جدتي، كأنما كنت ابنتها هي، لا ابنة أمي. أمي التي لم يكن يجمعني بها شبه أبدا، لا في الشكل ولا في الطباع. وأنا العنيدة التي تعرف أن ما تريد سيكون لها في النهاية، لذا أصر على طلبي أيّا كان وأعاند أمي ولا أهتم لثورتها لأن من تملك السلطة الأعلى كانت إلى صفي، دعما وحماية.

أمي المسكينة مع الوقت يئست من تغييري، وكفت عن المحاولة، ما عادت تركض ورائي لأن لديها من هو أولى بالمطاردة، ويجدي أكثر الإمساك به.

صار مشط شعري أسهل مذ دخلت المدرسة، لأني أحببت الدراسة، وأنست مباركة تلك الأيدي لرأسي الصغير المشغول بمحفظة جديدة وبضع كراسات وأقلام ملونة.

كبر عالمي إلى يد أخي، تضم يدي كل صباح طول الطريق وصولا إلى باب الابتدائية، حيث سجلني "عمي مسعود" شريك أبي والوصي علينا في غيابه.

السعادة لم تكن وقتها أكبر من علبة ألوان خشبية أقضي المساء في اكتشاف تداخلاتها على ورق ينبعج في كل مرة

إثر امتلاء دائرة جديدة بلون ما. ولم يكن الأمان غير يد حنون تتغلغل أصابعها بين خصلات شعري ليلا بحركة عشوائية، تجعلني أسترخي شيئا فشيئا، فأسلم لها أحلامي لتحصنها ضد الأحزان. ويد أخي ذي القامة الطويلة.. تمتد إليها ذراعي، واثقة أنها ستكون موجودة دائما متى احتجت إليها.

لم كان عليه أن يطول هكذا؟ حد امتداد عنقي ونظري إلى أعلى، بينما يتطلع هو إلى الطريق.. فكان عليّ طول حياتي ألا أبحث عن الأمان إلافي قامة شاهقة يمتد إليها نظري، وكف عريضة تحضن يدي في طريق لا أسلكه من دونها.

***

بعض الناس حين تراهم، يصعب عليك تصديق أنهم كانوا يوما أطفالا. أو أنه كانت لهم رُكب تنثني لأجلهم تلقائيا ليهنأوا بحجر حنون.

"البهلول" كان كذلك، بوجهه تجاعيد أكثر مما يتحمّل وجه واحد. إنه بهلول، غيّب الله عقله، أو لعله خطفه منه لحظات ليعيده إليه خاويا من كل ما يثقله. لم يكن لديه عنوان، لذا كان يجوب الشوارع حاملا صرّة بالية، على الأغلب بها ثياب رثّة من الصدقات و بعض ما يؤكل. يصر على التشبث بها طوال الوقت.

كنت أخاف من ذاك البهلول الذي يتعالى صوته كلما رآني بصيحات غريبة، خَفّت تدريجيا مع الوقت لتَعوُّده على رؤيتي رواحا ومجيئا على طريق المدرسة. يصرخ ويشير إليّ ثم إلى

عينيه، كأنما يرى أعجوبة ما وضعت عينين خضراوين في وجهي.

تلك الدهشة لم تقتصر على البهلول، بل رافقتني منذ فتحت هاتين العينين على الدنيا ورآها الناس، كان كل من أقابله يرى فيهما آية من الغرابة. "سبحان الله!" كان أكثر تعبير يرافق الانطباع الأول. يتبعه "روعة.. كأنها عدسات ملونة. أليست عدسات؟

لطالما وجد الآخرون صعوبة في التعود على هذا اللون الدخيل على ذوي البشرة السمراء، ووجدت أنا قسوة في ألاّ يروا فيّ أبعد من هذا.

الحياة لم تكن بنظري أكثر من صف للدراسة، ذلك عندما كنت تلميذة بالابتدائي عند معلم قصير نحيل، بعينين جاحظتين وعصا وصوت ضخم تكفي صرخة واحدة منه لإخراس كامل الصف، لم أعد أذكر غير هذا عنه حتى اسمه. وصديقات ألعب معهن خارج المدرسة، أتشاجر مع بعضهن لأسباب تافهة ونعود إلى بعضنا كأن شيئا لم يكن، إلا ابنَي عمي مسعود شريك أبي. فريدة زميلتي في القسم وشريكتي في الطاولة، و أخوها عمر الذي يصغرنا بعامين. يدرس بالصف الأول ونتولى أنا وهي رعايته لأننا أكبر وأقدم منه في المدرسة. كنت أفضل رفقتها على أختي صفية التي لم أتفاهم معها يوما والتي كانت تغار من تفضيل جدتي لي على سائر إخوتي وأبناء عمومتي. لذا أرافق فريدة وأخاها إذ لم أكن أتشاجر معهما بل كانا الوحيدين الذين أستقبلهما في البيت للعب أو الدراسة أو

مشاهدة التلفاز، حيث تدس لنا أمي قطعا من الكسرة الساخنة أو بعض النقود. وكذلك تفعل أمهما حين يأتي دوري في زيارتهما. كما تبعث كل منهما عبرنا سلامات حارة للأخرى وسؤالا عن الحال والصحة والأولاد. أحيانا تتبادلان زيارات مسائية لعيادة مريض أو للسمر على إبريق "اتاي" يرافقه صحن صغير من "الكوكاو" المحمص يرحب بالضيفة ويفتح سيَر الجارات وأخبار الأحباب والمعارف.

كانت صداقة كبيرة لأطفال أبرياء لم تُدنّس بحسابات المصالح، ولا مخاوف فيها من نوايا مبيّتة أو غدرات محتملة.. بل لا مكان فيها إلا للمرح برفقة تدوم من الصباح حتى آخر النهار، كنا دوما في الفريق ذاته أنا وفريدة إذا ما تطلبت اللعبة فريقا وسواء ربحنا أو خسرنا لم تكن إحدانا تلوم الأخرى.. أو نتشارك اللعب بدمى القماش المحشوة التي تصنعها لنا أمهاتنا، وننشغل بتلبيسها، وتجليسها، وإقامة عزائم وهمية ودعوة بعضنا إليها.. بالإضافة إلى بعض الصديقات بعد أن نتفق على دعوتهن. لم يؤثر شيء على علاقتنا.. تصادق أمهاتنا وتوتره في كثير من المرات ومنع أمي لي من الذهاب إلى منزل فريدة حين لا يسمح مزاجها بذلك فأحتج وأسأل: لماذا؟ لكنها تكتفي برد بارد: هكذا، لأني قلت ألاّ تذهبي. ولا أثّرت شراكة أبوينا المشبوهة وغياب أبي ولوم أهلي لشريكه سرّا على غيابه الطويل غير المبرر ودعوات أمي عليه بحرقة أحيانا.. لاشيء. لاشيء أبدا من هذا كان يعنينا.

كنا نعيش عالمنا، تملأ أفكارنا ألعابنا الصغيرة وكراسات

الدراسة المسطرة المغلفة بألوان متشابهة، والتي كُتبت على كل من صفحاتها الأخيرة: غالية + فريدة = حب، فريدة + غالية = حب. علامات الامتحان كانت الأمر الوحيد الذي لا أتحمل أن تتفوق عليّ فيه فريدة، وإن حدث ألتزم صمتي، وأبكي خفية كي لا تسمعني أمي أن إهمالي وطول ساعات لعبي هي سبب نتائجي حتى إن كان السوء الوحيد بها أنها أقل من نتائج ابنة عمي مسعود وزوجته اللذين يتغير رأيها فيهما حسب مزاجاتها المتقلبة..

الوقت صباح.. كانت أمي قد حضّرت لنا الفطور وتجهزتُ وإخوتي للخروج صوب المدرسة. قصد عمي مسعود بيتنا عجلا بفرح عارم أربك خطوه مرات إلى أن بلغ الباب، دقات قليلة قبل أن يفتح سفيان.

- صباح الخير عمي مسعود..

- وصلتني رسالة من أبيك.. انه بخير وسيعود إنشاء الله حالما يستطيع.. إنشاء الله قريبا جدا. بشّر أهل الدار.

يطير سفيان إلى أمي وجدتي، عجّ بيتنا فجأة بالبهجة وعلت الزّغاريد، فتسارع الجيران ليسألوا عما حدث.. فرحت بهذا الخبر جدتي أيما فرح، واختنقت كلماتها بالدموع ورفعت يديها

تحمد الله وتتبرّك بسيدي فلان وفلان الذين دأبت على زيارتهم حتى أتتها البشرى. أمّا أمي فأخذت تستجوب أخي سفيان عما قال له عمي مسعود باحثة عن موعد لعودة أبي.. وتعاود سؤاله: متأكد؟ هذا ما قال لك. فقط؟

على مدى الأيام الموالية تغير جو البيت إلى فرح كبير، وتوافد الأحبة والجيران الفضوليون إلى دارنا ليتأكدوا من صحة الخبر والاستفسار عن تكملته.. عن سبب الغياب الطويل، عن موعد الرجوع، وحتى عن الوليمة التي كانت جدتي تعد بها.. أمي كانت تفكر بزوجها الذي ستلتقيه بعد أشهر طويلة، وتتجهز بكل ما أتيح لها، زاد حماسها فقلبت البيت رأسا على عقب. غيرت أماكن الأثاث وغسلت كل ما يغسل من فراش وستائر. أما سفيان فكان ما يسعده أكثر هو الدراجة الذي وعده بها أبي قبل سفره الأخير.. وأنا كنت متحمسة لأراه. اشتقت إليه وإلى هداياه، ومسرورة لفرح جدتي الغامر الذي غيّر نفسيتها وأزاح عنها غمامة الحزن التي ظلّلت وجهها طول فترة غيابه.

هرعت جدتي للوفاء بوعدتها، كما توالت بعدها الوعدات بعد كل غياب طويل لأبي وعودته.

***

كان لصفية فَلجَة بين أسنانها، والفَلجَة فراغ بسيط بين السنّين الأماميين العلويين، يُعتقد في الموروث الشعبي أنها علامة على الحظّ الجيد. الحظ الذي أخذت منه نصيبها كاملا من حب

أمي، ورعايتها ودعمها، كأنها كانت تعاند جدتي، وتثبت لها سوء تربيتها لي بشقيقتي. إذ لم أكن أنكبّ عِلى تحضير الطعام باهتمام كأنه حدث تاريخي، ولا كنت أعلم الجميع بجديد ما تعلمت وما فعلت من أشغال البيت، ولا كنت أسأل الكل عن كيفية أدائي، مثلها.

كانت شبيهة أمي ومصدر فخرها، قدّر لها أن تتحدث عنها حماتها المستقبلية للمعارف والأحباب، بأنها شاطرة، و(كل صبع بصنعة). وتُردف (يرحم من رباها)، هذه العبارة هي وسام أمي عن كل سنين تنشئتها. ستصبح نسخة كاملة عنها قريبا.

أما أنا فلم تكن لدي فَلجَة أتفاءل بها لمستقبل أيامي، ولا كنت مطواعة لتلك المرأة التي أرادت مني أن أكون أيضا مصدر فخرها، لكني كنت فقط كما أنا، حيث تركت لي جدتي مساحة كافية من الحرية المحروسة، كانت كافية لتجعل أمي تيأس من ترويضي، وتكتفي بالتذمر.

(لم تُتعبني يوما، ربي يسامحها) كانت تردد، يبدو أن ولادتها بصفية أيضا كانت مريحة، وكان مريحا لكلتيهما أن تتبعا قدرهما كما رسم لهما، قدر تقليدي بسيط، لا تحتاج فيه أي منهما أن تفكر، ولا أن تُعمل رأسها الصغير بأكثر من توصيات تاريخية والحرص ما أمكن على حصد البركات، بركات الزوج المستقبلي، بركات أمه التي ستفتح عنها حديثا للجارات وتوقعه بختم الرضا، بركات حماها وبركات الجميع.

صفية كانت جاهزة، والعمة كلثوم كذلك، جاهزة لجمع

العائلتين برباط مقدس، جاهزة لجعل شقيقتي كنة لها.

الكل موافقون سلفا، العائلتان تعرفان بعضهما، فهم جيران منذ الأزل. العمة كلثوم معجبة بصفية، وهذا الإعجاب سينتقل تلقائيا إلى العريس. العريس شاب في الرابعة والعشرين، وهي في الثامنة عشر، يعمل في ورشة نجارة، إنه عمل محترم كما أن عمله في الورشة سيسمح له بتجهيز غرفة النوم بسرعة. الشاب ذو سمعة طيبة، إنه صهر مناسب، وأمه ترغب بتزويجه لأنها ترى أن الوقت حان ليحضر أحفادها إلى الدنيا.

أمي ترغب في هاته المصاهرة التي يبدو أنها اتفاق مُبرم، وأنه مذ كانت العمة تتردد على بيتنا لجلسات ال"اتاي" وتبادل الأحاديث النسائية، خلالها كانت عيناها الخبيرتان تقيّمان جاهزيّة العروس، ويبدو أن كل الظروف مواتية والوقت كان قد حان لإعلان ذلك.

جدتي الخبيرة هي الأخرى كانت تفك شيفرات ابتسامات الزائرة الخاطبة وهي تنظر إلى صفية وتسلم عليها بحرارة، فتبتسم الجدة بدورها إيماءً بالموافقة.

كل هذا كان مقدرا والجميع سعداء، وما هي إلا بعض اللقاءات ابتداء من كبيرات نساء العائلتين ثم الرجال انتهاء بالإمام الذي سيشرع هاته الزيجة، ثم لا يبقى إلا إقامة العرس.

كل شيء سار كما تنُصّ الأعراف والتقاليد، صفية كانت سعيدة لأنها ستتزوج، والعريس ابن العمة كلثوم ليس غريبا تماما، تذكر أنها رأته أكثر من مرة على فترات متباعدة في

طريقها إلى الحمام أو إلى زيارة الأقارب. غير أنها لا تذكر بالضبط ملامحه.

كم هي محظوظة بهذه الزيجة، ستكون عروسا بعد أشهر، هذه الفترة كانت كافية بالاتفاق لتُحضر كل من الحماتين ما يلزم للعرس وجهاز العروس، وغرفة صغيرة هي عش الزوجية السعيد في بيت الحمى.

لم أر أبي أسعد من هذا، وأنا كنت سعيدة لهذا الكم من الفرح الغامر، وتمديد أبي سفره هذه المرة فترة كافية للاهتمام بالتفاصيل.

(صفية محظوظة) كانوا يرددون. كل الصبايا هناك في أقاصي الصحراء محظوظات، يتزوجن باتفاقات عائلية رجالا ليسوا متأكدين بالضبط إن كانوا يذكرون ملامحهم. لهن جميعا جدات وأمهات سعيدات بتخرجهن بجاهزية قصوى ليكن كنّات صالحات، وتقول عن كل واحدة حماتها "يرحم من رباها"، فتكون أمها فخورة.لم تكن أي منهن تحتاج فلجة بين أسنانها لتصنع حظها.

كما كان يكفي لأي شاب أن تكون له أم أو قريبة كالعمة كلثوم، تنوب عنه في اختيار العروس، وجسّ جاهزيتها أثناء جلسات اتاي. كان هو الآخر على أتمّ الاستعداد ليكون أبا صالحا متى قرّر عنه ذلك، وقد فعلت العمة.

(العقوبة ليك) كل من بارك لشقيقتي مستبشرا بإعلان خطبتها، قال لي ذلك. وعينا جدتي كانتا تأملان رؤيتي بحلّة

العرس قريبا كذلك، تتخيلني أتوسط باحة الدار حيث سيقام العِرس، وقد طرزت نقوش الحناء الدقيقة السوداء يدي وقدمي، وأسدلت على وجهي طرحات الفرح والحياء، بينما تحيطني صبايا العائلة والجارات يصدحن بأجمل ما يحفظن من أغاني الأعراس على وقع الدفوف، وحناجرهن تعلو بالزغاريد. كما كان الحال مع صفية التي زفّت إلى عريسها، وبعد فترة أصبحت أمّا، وجعلتني خالة لطفل صغير، ثم لطفلين.

أصبحت شابة في عيني جدتي التي تتخيلني أجمل عروس، فأنا حبة قلبها، تتمنى بفيض من حب وأمل أن تكون موجودة لتباركني حينها، فتقلّدني سلسلة ذهبية تخبئها لي منذ أن جئت إلى هذه الدنيا، واستقبلني حجرها. منذ جئت لأصبح غاليتها. ستبكي، تتنازعها دموع لا تدري فعلا إن كان انتصر فيها الفرح لأنه جاء ليل تزفّني فيه إلى رجل، أم هو ألم لفراقي، أنا التي يعز عليها فراقها يوما حتى لهذا.

آه يا لميمة، ربما تأتي الأيام بما لا تشتهين. ربما جدك الألماني الذي كبرتني على حكاياه، وأصابعك تسدل ليلا شعري، يناديك الآن، ويهمس لقلبك أن لعينيها مثلي أقدارا أخرى.

قُدّر له أن يهديني عينيه، خضراوين على بشرة جنوبية، لأذكر أبدا تلك المسافة التي عبرها ليجد بين هاته الكثبان قلبه. أنا أيضا أحتاج أن أجد قلبي يا لميمة، ولم أكن أتخيل يوما، كما لا تتخيلين، أن تلك المسافة ذاتها ستحتاج أن تقطع مرة أخرى.

هو وجد السلام هنا، وجد شقيقة روحه، كان هذا قدره الذي

حضنه بحب، وترك لأجله البحر الذي كان يصادق.

***

البحر.. كنت وحيدة تماما قبالته، يحدق إلي عبر الظلام، بينما جلست هادئة وضفائري الإفريقية تترنح مسدلة خلفي. يرتفع عاليا ويهدر، ثم ينزلق برفق عند قدمي، يتوقف عند أصابعي العارية إلا من حبات الرمل. وبالرفق ذاته يحملني على متن موجته ذاتها، ويأخذني بعيدا. أفقت ليلتها مذعورة من النوم.

(أخذني الموج) قلت لجدتي. لأجدها تتمتم باسم الله، وبما تحفظ من قرآن وأدعية. لا أنسى أنها حضنتني وقالت أن البحر بعيد جدا، وأنه مجرد حلم عابر، "ربي يحميك يا بنيتي". لم تكن تتخيل أنه ليس بعيدا كما تعتقد، وأنه سيأتي يوم أذكر فه تلك الليلة وكلماتها كأنما هي ضرب من الخيال البعيد، وانه لو قال لنا أحد يومها أني سأكون واقفة الآن خلف هاته الشرفة من عمارة عالية، أتفرج على البحر في مدينة تقع على الطرف النقيض من الصحراء، لكنا ضحكنا أنا وجدتي واعتبرناه قول جنون.

لكني هنا فعلا، أضم نفسي قبالة البحر، كان ينادني مذ تلك الليلة لكنه لم يرتفع بعد لينزل عند قدمي في ليل ما، ويأخذني بعيدا.

كل مرة أواجه فيها زرقته الأزلية أذكر ذلك الحلم، أذكر أني رغبت لحظتها أن أقول لها أني أحب رؤية البحر. لكني

شعرت بخوفها عليّ من أمر آت، لا يد لها ولا قدرة على إيقافه. فلم أقل شيئًا.

في الغد كان على جدتي إخراج طعام كصدقة، وزيارة أوليائها الصالحين وحرق بعض قطع البخور، والدعاء أن يكون هذا كافيا لدرء أي سوء يمكن أن يصيبني.

أفكر في مدى حرصها عليّ، كم للمرء أن يخاف على من يحب أكثر مما يخاف على نفسه.

بعد كل هذا الوقت، أفكر أنه لو لم أكن قد ورثت عيني جدي المسافر بحثا عن قدره، والذي أورثني معهما غربته طوال حياته وصولا لعينيها. ربما لو كانت لي فلجة بين أسناني لكنت الآن أمًّا لبضعة صغار، كما حال صفية. لربما كنت وجدت قلبي ولم أقطع تلك الكثبان والأقدار الأفعوانية لتحيطني كل هاته الغربة.

أحدق إلى البحر فيما يواصل نسيمه تحريك ستائر الشرفة نصف الشفافة ويداعب ضفائري المسدلة.

أتمسك بقوة بخمستي الفضية ذات الحجر الأزرق فيما تواصل الريح الهبوب.

***

طال غياب أبي مرّة أخرى، وبدأ الصبر ينفد، صبر والدته الذي كان يبدو بلا حدود، قلبها كان يُنبّئها بالأسوأ، لم يكن

له أن يَكذبها بعدما صدقها عمرا. فكانت تبيت ليلها متضرعة إلى الله أن يحفظ غائبها، بكرها الذي لا يعرف أحد شيئا منذ فترة باتت تدعو للقلق.

قلب جدتي، لم يكن شيء يطمئنه أكثر من زيارة أحد أوليائها الصالحين، فكلما طلبت في إحدى زياراتها أمرا وتحقق، لم تبخل أو تتردد بعدها في إخراج الصدقات والوعائد.

الصدقات تدرأ السوء، ترد الشر من أمام العتبة. لكن ماذا عن السّوء الذي يحدث بعيدا عن العتبات والعيون. وحده الله يعلم حال أبي في غمرة غيابه الطويل، بعض الأخبار يأتي بها العائدون من ليبيا عن أسره من طرف جماعات مسلحة في الجنوب. لم يكن أي منا يصدق أن ذلك الرجل الصالح سمح القسمات يمكن أن يكون له علاقة بأي طريقة مع مثل هؤلاء.

جدتي لا يمكن أن يقنعها كلام كهذا حتى لو رأته بأم العين، التحفت شالها البني تلك الليلة وقصدت دار عمي مسعود لتقصي اليقين، لكنها عادت خائبة الخطى. حتى شريكه ينفي علمه بأي شيء، وإن كان ما يقال صحيحا فلن يبوح لها بأمر قد يشكل خطرا عليه وينغّص عليه عافية حياته.

لم تنم ليلتها، قضتها بين صلاة ودعاء وتضرع لله ألا يكون ما سمعناه صحيحا، وأن يأتي النهار بما يبدد ظلمة الحيرة. أما أمي فباتت تندب حظها وتضرب فخذيها حسرة، تلوم أبي على هذه المصيبة التي أوقعها فيها والتي لم تكن ترى منها مخرجا. لم يَكف كل ما قاله عمي مسعود لطمأنتها، بأنه

سيفعل اللازم ويقوم باتصالاته، كما أنها لا يجب أن تقلق حيال مصاريف الدار والأولاد. كانت تعاود كلماته تلك طوال الأيام الموالية، لم تقنعها كلمة واحدة من كلامه، وكل ما قيل عن الجماعات المسلحة كان يفتح على الجميع جحيم وساوس لا ترحم.

لعله يعاني البرد أو الجوع، وربما أولئك الأشخاص يعذبونه الآن، كانت تفكر الجدة. قلب الأم هو من كان يبكيه.

لا أحد يفهم شيئا، لا أحد يستوعب أو يجد رابطا بين ذاك الرجل الهادئ تاجر الملابس والأغراض المنزلية عبر الحدود، وبين جماعات تتناحر فيما بينها لأسباب غير مفهومة. وإن كان ما يُشاع صحيحا وقد أسر في جنوب ليبيا فعلا، فمن المؤكد أن خطأ قد وقع، لعلهم يخلطون بينه وبين شخص آخر. فهو ليس سائحا أجنبيا يفيد أسره في قبض فدية ضخمة من بلده، أو التفاوض على أمور سياسية، لابد أن يطلقوا سراحه قريبا. كما كان يأمل ويفكر الأخوال والأعمام والأحباب الذين توافدوا على بيتنا خلال تلك الأيام المثقلة بالحيرة والتساؤلات.

بدا ذاك البيت موحشا فجأة، خاويا، من جاء بالخبر كان يحمل الخراب لهاته الجدران، وحشة شعر بها الكل، سند هذه العائلة على الرغم من تعودنا غيابه، ربما لن يعود.

كأن آخر مرة خرج فيها فجرا خلال نومنا، كما فعل دوما، كانت الأخيرة. وهو الشعور الذي لم يكذب قلب تلك الحنون حين أسرها به. أدركت حين نغصها أن خبرا شؤما لابد قادم،

فجلست على هيدورتها الصوفية قبالة الباب في انتظاره. كانت تعاند حدسها بالدعاء والوعائد. إن الله كريم كما كانت تثق و تؤمن ، إيمانا راسخا هدأ من روعها بعد فترة، ليتحول أملها إلى أن تلقاه بكامل عافيته قبل أن ينقضي أجلها، وأن يحفظه الله أينما كان.

كان قلبها صادقا إذ نبّأها بأنّها لن تلتقي أبي بعد ذلك أبدا، هذا هو السوء الذي كانت على يقين من حدوثه، وهبت الريح التي تأخذ معها الأحباب كما أوراق الشجر النحاسية. الموت الذي جاء من غير المنتظر ليأخذ منّي جدتي، كنت قد بلغت الثامنة عشر من عمري عندما ماتت. هكذا فجأة من دون سابق إنذار، من دون أن تشكو إلا من وجع خفيف في الصدر منعها من الذهاب معنا ليلتها أنا وأمي لزيارة إحدى قريباتها. لم تطل الزيارة حتى ركض إلينا سفيان يستعجل أمي لتعود إلى البيت.

م..ا..ت..ت جدّتي، أمي حبيبتي وراعيتي دون أن تودعني، أو توصيني أو حتى تمرض، حتى أني لا أذكر أنها مرضت يوما أو اشتكت.. فقط نظرت إلي يومها كأنها تهُم أن تقول شيئا.. لكنها اكتفت بضمي. فضلت أن أذكرها صامدة و قوية. كانت تقول لي دوما أنها لا تحب أن تراني أبكي لذا حتى على موتها لم أذرف دمعة واحدة، أجل لم أبك. شعرت بأن جسدي فارغ من الداخل، أنها تخلت عني، هكذا رحلت في غفلة مني، وورّثتني حضنا فارغا وخُمسة فضية ذات حجر أزرق لم تكن كافية لحمايتي من الزلازل التي تعاقبت عليّ بعدها.

كما ورّثني ابنها تجويفا داخل صدري، حاول أن يسُدّه حشرًا بكل تلك الأكياس المخططة والمال المتسرّب من ثقوبها القذرة. إلا أني لم أشعر بالأمان إلا معهما، ولم ينخلع قلبي لأمر كما لرحيلهما. هما أكثر من أحببت، في عزّ حاجتي إليهما رحلا فجأة كل إلى طريق، وتركاني وحيدة.

الموت كما الغربة أمر لا يتعوده الجميع بذات الدرجة بمرور الوقت كما ظننت. إنها ظل داخلي يلاحقك أينما ذهبت وكيفما اتجهت، يزداد ظلمة وقتامة في لحظات الوحدة.. يبدو كل شيء أكثر سوداوية، تشعر بضآلة مخيفة بينما يسير كل ما حولك إلى خواء.

الموت كالغربة. البعض يتقبلونها كلحظة نوم أبدية، يحزنون على أنفسهم لأنهم لن يروا تلك الجثة تملأ شيئا من فراغاتهم بعد اليوم. يمسحون أنانيتهم ويتابعون حياتهم.

وآخرون يسكنون اللحظة إلى الأبد، يعيشون الفقد الدائم، لأن العيون التي أغمضت أخذت معها النور والابتسام، يعرفون أن ما هو آت لن يعود أبدا كما كان.

ونوع آخر، يتعامل مع الموت كما الغربة، تحزنه في البداية، تُضيّق عليه، لكن سرعان ما يألف أجواءها وتألفه، ويتصالح مع المكان الجديد، ويلائمه الهواء، حتى أن أرضه حين يزورها، يصيبه اصفرار وجهها بالخيبة والغثيان.

الأمر الأصعب من الخسارة هو ألاّ تكون جاهزا لها.. غير مهيإ للتعايش معها، للعودة ليلا إلى مخدة وحيدة، بينما في

الحياة هناك هزائم يستقبلها أصحابها كأنهم يعلمون بقدومها فتحضروا لها كقدر محتوم لا مفرّ فيه من فرش المجالس ومد الأيادي بانتظار العزاء..

ضاقت بي الدنيا فجأة، ضاقت الصحراء، جثمت كثبانها الثقيلة على صدري. لم أتقبل موتها أبدا، ليس لأني أعتقد أن بعض الناس لا يجب أن يموتوا. بل لأن موتها جاء مفاجئا صادما من دون مقدمات، وترك فراغا مقيتا، لم يستطع بعدها أحد أن يسد منه ولا حتى جزءً يسيرا.

صعُب عليّ مواصلة الدراسة بعد أن انقطعت لباقي السنة، انقطعت من دون اقتناع، لكن أحد أيضا لم يجبرني أو يحاول إرجاعي إلى المدرسة. وهكذا سارت الأمور. كانت أمي على الأقل سعيدة.

تمّ إخراج ثياب المرحومة وأغراضها من البيت، وتوزيعها صدقة على المحتاجين. فيما احتفظت بمكحلتها الفضية المنقوشة، وهيدورتها الصوفية ومخدتها وشالها البني المعبق بالعنبر، دون أن يُقدم أيّ من عائلتي باحتجاج.

واستأثرت بعدها لنفسي بغرفتها التي كنت أشاركها إياها، مستأنسة بقططي وحكاياها الليلية، على أمل أن تدرأ البرد القادم من المجهول.

***

خريطة مبسوطة على الحائط أعلى طاولة، كنت قد خصصتها

للدراسة، خريطة للعالم أجمع تجعل الصحراء الشاسعة الممتدة إلى أقصى ما يصله نظر، تجعلها محصورة في مساحة صغيرة صفراء اللون، بينما يشغل الأزرق جزءها الأكبر، ويحيط باليابسة من كل اتجاه.

هذه الكرة الأرضية المبسوطة قبالتي، تقول أنه فيما أنا جالسة على هيدورة من جلد الخروف المصوّف، ببقعة لا تتجاوز الذراعين، يوجد في العالم ما هو أهم من قصعة العجين التي بين يدي. هناك الكثير لأعيشه.

يوجد مليارات من البشر يستيقظون كل يوم، يسافرون ويحلمون، يتحاربون مع آخرين لا يعرفونهم لأسباب لا يعونها تماما، يحبون ويبكون ويتكاثرون، ويموتون أيضا. يوجد أماكن أكثر مما يتخيل رأس أمي المسكون بالمطبخ وحكايا الناس.

كيف يمكن أن تُختصر الحياة كلها في جدران معدودة، كيف تختزل في تلفاز يتحدث لغة وحيدة، بينما العالم يعج بالناس واللغات. كيف يتحاصر الناس بمساحة ضيقة، فيما الكون يمتد إلى اللانهاية.

لم أستطع فهم الحكمة من كل تلك الكواكب المُقفرة والسماوات المترادفة الواحدة فوق الأخرى، بينما كل الحيوات المعروفة محشورة في هذا الكوكب الوحيد الذي ينعم بالبلل. وكيف في النهاية ومهما صال الإنسان وجال في شتّى البقاع، وساح في كل اتجاه، لابد له في النهاية أن ينتهي إلى حفرة

في الأرض تختزل وجوده في حفنات من تراب، وشاهد رخامي أبيض، و"المرحوم" كنية جديدة تلازم اسمه.

لم يكن ما أفكر فيه يعني أمي، كل ما يعنيها كان العجين لتحضير الغداء، تمهيدا لرفع جاهزيتي لأقوم بمهمتي التي خُلقت من أجلها، أن أكون زوجة صالحة مثلها وأمّا.

كنت أعي ما يدور بفكرها، خصوصا بعدما توقفت عن الدراسة، لكني آثرت ألا أعاندها، وطاوعتها إلى حين تفاديا لمزيد من التوتر.

راحت فكرة العالم الواسع تُراود تفكيري، فيما كنت أمضي فترة ما قبل الظهر انشغالا بأعمال البيت، وما بعدها في مشاهدة التلفاز والعناية بقططي واللعب معها، في انتظار المساء وتحضير العشاء، كأن كل الأيام ما هي إلا فترات فاصلة بين تحضير الطعام وتناوله، وإعادة تحضيره وتناوله.

الحياة تستمر، عجلة الوقت تدور وتدور من دون توقف. الشمس تروح وتجيء تباعا بلا ملل ولا إجازات، وحدهم الناس يتغيرون، يبدون ذاتهم لكن مراياهم تقول عكس ذلك، المرايا حيث يطلون على دواخلهم من الخارج فيلمحون آثار الأيام التي تتركها قسوة وحنوا.

(الضربة اللي ما تقتلكش تقويك) كما يقول المثل. أجل، الضربات تقوي أحيانا، لكن بعضها تترك صاحبها قعيدا، وهو ما لن ترضاه الأم التي لم تنجبني غير أنها منحتني أكثر بكثير مما فعلت أمي.

كانت غربتي تزداد في ذلك البيت يوما إثر آخر. كان المذياع رفيقي، يصحبني في غرفتي وإلى المطبخ ويؤنسني، إذ لم يكن يتطلب إلا زرا واحدا يُضغط لينطلق في سرد الحكايا المختلفة ورصد أحاديث واهتمامات الناس حول مختلف المواضيع، ويُطرب جلّ الألوان والأذواق. وعندما يجن الليل، تأتي معه السكينة، فحين ينام الكل، أشرد أنا فيما كان يلقي علي شعرا ورسائل للعشاق من كل مكان.

ما فعلته بي تلك الرسائل والغراميات أن فتحت قلبي إلى ما كان غافلا عنه، الحب. الحب الذي كان أكبر من أوراق مطوية صغيرة تدس في أيدي صغار الحي ليركضوا بها إلي. أو نظرات مسروقة لمن ينتظر مروري على طريق المدرسة، فيبيت الليل ساهرا يفكر فيما كنت سأقول له ردا إن استجمع جرأته وأفصح لي بحبه في اليوم الموالي، ويأتي الغد عليه وقد تهندم وتأنق بأقصى ما يمكنه، ليعود خائب الجرأة لليل آخر واحتمالات أخرى.

لم يحدث أن خفق قلبي لأحد كأنه سيتوقف فجأة، لم يحدث أبدا أن تسمّرت عيناي أو شغلني التفكير في أي رجل، أو أربكني الخجل في حضوره، لم يسبق أن تملكتني رغبة في البكاء لأني لست رفقة أحدهم، لم أحرق قدرا وأنا أفكر فيه. لم يخطر لي أن أكتب أشواقي وأشعل الأوراق بعد ذلك.

لكن قلبي كان يخفق، ليس لأحد تحديدا، لكنه كان يتنشق ذلك الحنين في رسائل الغرام مرمّزة الأسماء المذاعة على الراديو، فجأة شعرت أن جميعها لرجل واحد، ينتظر كل

خميس لأستمع أنا تحديدا لكل ما يرسله إليّ عبر الأثير. آملا أني هنا في فراشي أتلحف ذاك الشال البني، وأنتظر غرامياته.

كنت أحس بكل كلمة، وأنا على ثقة أن عيون تلك الرسائل والقصائد لم تكن إلا عيناي، وأن كل الشوق المقفّى فيها والمنثور كان لي. وأن ذلك المذيع ذا الصوت الشجيّ كان يعرفني، فيما تحسدني باقي المستمعات.

انخطفت في حالة غريبة من العشق والسرحان والسعادة، مصدقة أن كل ذلك صحيح. وانتظرت انقضاء أيام الأسبوع إلى الخميس، حيث يعود المذيع ذاته حاملا رزمة رسائل جديدة ليقرأها على مسمعي. لم أعد أذكر كم مر وحالي كذلك، عاشقة من دون حبيب، ومأخوذة إلى حد بعيد كل ليلة بين شوق وعتاب وحنين.

كنت قد تناسيت تماما وجود غيري في العالم، كأن لم تخلق امرأة غيري، وأن هناك رجلا وحيدا يحمل لي كل مشاعر الحب الممكنة.

أمي التي لم يسرّها سرحاني، خطر لها أني أفكر في رجل، ولولا وفاة جدتي الذي يلزم أن يمُر عليه وقت كاف لفك الحزن، لفتحَت الباب للخطاب، تختار من تجده مناسبا لي، لعلي أكف عن جنوني.

أما أنا فقررت العودة للمدرسة، بعد أن هجرتها في منتصف العام الأخير للثانوية، عام الباكالوريا، وقريبا تنتهي العطلة وتفتح المدارس.

الآن فقط يمكنني أن أفهم تماما ما يشعر به كل الذين يتحدث عنهم ارتباكهم، ولا يجرؤون على أكثر من دس رسائل على شكل أوراق مطوية في أيادي من يمكنهم الوصول إلي، رسائل بثوها وجدهم وأشواقهم وإعجابهم. الإعجاب الذي لم تبخل عليّ به الحياة، وسيرافقني أينما حللت وكيفما اتجهت، من دون أن أبذل جهدا أو أفعل شيئا. وهو الأمر الذي لم يكن يرتاح له الجميع.

***

كنت في ذلك الزمن البعيد أحب القطط، ولازلت، لكني كنت وقتها أربي عددا منها. أحببت تلك المخلوقات الصغيرة وقربتها مني، حتى أني كنت لا أنام إلا وهي بحضني. لا شيء له القدرة على منحك الشعور بالحب والحاجة إليك مثلها.

فروها الحريري الدافئ، مواؤها المستنجد المناجي، ألسنتها الوردية وهي تلعقك توددا كما تلعق صغارها. كنت متعلقة بها يؤنسني وجودها، خاصة بعد رحيل جدتي، فتشاركت الغرفة مع قطتي الوحيدة المتبقية، بعد أن رحلت البقية إلى أماكن أخرى، لابد أنها وجدت مكانا أفضل أو غادرت لأجل شريك ما كما فعلت صفية، شقيقتي الوحيدة التي لم تكن تشاركني القرب من الحيوانات، إنما تخشاها ولا تحتمل القرب منها، إذ كانت تصيبها نوبات فزع غير مفهومة إذا حدث واقترب منها أي مخلوق غير بشري حتى لو كان أليفا وغير مؤذ.

لكن في المقابل لا يصدر منها أي تصرف مسيء، فهي لا

تضرب أي حيوان مثلا. بالعكس، تقدم للصغار منها الحليب وتُبدي تعاطفها نحوها، تشعر أن الحيوانات المشردة تستدعي الشفقة. لم أكن أفهم موقفها، ورأيت فيه تناقضا غريبا، لكني كنت مرتاحة لأن أمي وعلى الرغم من عدم ترحيبها بقططي في البيت، لم تجد في نوبات صفية مبررا كافيا لطرد الصغار الستة التي أنجبتهم قطتي مؤخرا في صندوق من الكرتون جهزته لها تحت الخزانة، ثم أن صفية انتقلت إلى بيت زوجها ولن تضطر إلى التعامل مع من يزعجها ممن يعيشون هنا بمطلق الأحوال.

أما سفيان فلم يكن له اعتراض على احتضاني لتلك القطة وصغارها، كان يحب الحيوانات هو الآخر ويربي الحمام على السطح في صناديق خشبية.

مشكلته الوحيدة نظرة تلك القطة إلى حماماته، نظرة اشتهاء شرس، كانت تسبب له تخوفا مما قد يحدث إذا ما وقعت أجنحتها الطريّة بين تلك الأنياب والمخالب المهيّأة للافتراس. لكن صناديقه محكمة الإغلاق تمنحه شعورا مطمئنا بأن لا فرصة لتلك القطة مع احتياطاته.

كبر خوفي على القطط بعد ولادة الصغار، وحاولت تحصين احتياطاتي تفاديا لمواجهة مع أمي لا أضمن نتائجها. فصرت لا أنام إلا بعد أن أغلق الغرفة تاركة النافذة الصغيرة مفتوحة لكيلا أضطر في الصباح إلى تنظيف فضلات القطط.

كنت أعرف أن قططي غير مرغوب بها من طرف الجميع

بدرجات متفاوتة، لذا كنت أخاف عليها، أخاف فقدها لفرط تعلقي بها ولجوئي إلى حُنوّها واقترابها مني لدرء شيء من برد وحدتي. أحضنها وأطعمها بيدي، تنام في فراشي وأحممها أحيانا. كبر الصغار بعد بضعة أسابيع وصار لدي سبعة كائنات رائعة، أسارع الخطى عودة من المدرسة لأطمئن على غذائها وراحتها، وأنهي ما علي من أشغال البيت لأغلق علينا باب الغرفة، ألاعبها وأعتني بها صانعة لنفسي عالما أكون فيه ذاتي من دون مراقبة أو ضغوط أو توقعات من أحد عليّ ألّا أخيبها.

في ذلك البيت ما يكفي من التناقضات، لطالما جرى صراع غير معلن لفرض الذات والسلطة، أمي من جهة وجدتي من جانب، زيارات أبي وإن تباعدت تحدث شيئا من التوازن والسلام، فكان الفرح بوجوده يؤجل المواجهات النسائية إلى حين، مواجهات لا يفهمها الرجال ولا يشعرون أحيانا حتى بتأججها.

لم تكن المرأتان تُكنّان بالضرورة لبعضهما ضغينة ، كانتا متحابتين بطريقة ما، لكن المكتوب الذي وضعهما في بيت واحد كان لإحداهما زمنا طويلا، حيث صعب عليها التنازل عن سيطرتها على تفاصيل تحرك ساكنيه وأغراضه، وكان على الثانية الاختيار بين الاستسلام لتلك السيطرة كما فعلت صفية وبالتالي كسب الرضا، أو شن حرب أعلن الموت فيها فوز أمي وارتفاع راياتها كلها دفعة واحدة.

انتصار لم تكن سعيدة به تماما، لكنها تستمتع الآن بالتمرغ في مكاسبه. كما كانت قطتي عندما أنهت التهام حمامة كاملة، سمح لها نسيان سفيان قفل أحد صناديقه غير موصد،

لتستغل الفرصة التي ترصدتها طويلا. أظنها أُتخمت يومها، فقبعت تلعق مخالبها وتمد بطنها المنتفخ بجوارها. لم تكن لتتخيل كم هو باهض ثمن وليمتها المحرمة.

اللحظة التي كنت أخشاها أتت، رهبة دخول غرفتي ولا يكون فيها ست صغار يتململون ويتراكضون في أرجائها. عدت من المدرسة لأجد البيت خاويا من المواء، أمي تترقب ردة فعلي متأهبة لكبحي. سفيان يجيء قبلي ليجد القطة ممددة إثر جريمتها، يفهم كل شيء من الريش المتطاير في كل مكان وجوفها المتخم، يصعد ليتأكد أن إحدى حماماته مفقودة، فيهبط درجات السلم الخشبي المسند للجدار بسرعة مجنونة، ويتناول خيشة قديمة، يقذف فيها الصغار الستة وأمهم ويذهب بهم إلى المجهول، إلى أبعد ما يستطيع. القطط تعرف طريق العودة، لكن ليس من منفى حاقد.

عدت قبله هذه المرة، لم أكن لأستطيع شيئا أمام غضبه لكني على الأقل كنت لأحاول استدرار عطفه على صغار سيرميهم لمخالب شتاء قادم. لم أجد عند عودتي إلا صدمة أبكمت صراخي، حقدت على أمي وصمت فرحتها بتخلصها من آخر انزعاجاتها في البيت وأكثر ما كان يشغلني ويثير حنقها، حقدت على أبي الذي لم يكن موجودا ولا قريبا ليحسب له سفيان حسابا ويفكر قبل أن ينتقم لحماماته، على صوته الذي قفز للذاكرة "انتي تشتي القطوط، وأنا نشتي القطة نتاعي"، وعلى خوف صفية غير المبرر من تلك المخلوقات، وحقدت على حمام السطح الذي أغرى قطتي بافتراسه.

حضن جدتي لم يكن موجودا هذه المرة لأبكي عليه. دخلت الغرفة وانسللت في فراشي، احتضنت شالها المعبق ونمت.

لابد أني رأيت ليلتها كائنات صغيرة مغمضة العيون تتزاحم في الغرفة لترضع أمها التي استلقت على جنبها لتروي ستة صغار ولدتهم للتو، أو ربما حلمت بذلك. مواء تلك القطط في رأسي لم يسمح لي بمسامحة الجميع على ما فعلوه.

في زيارتها التالية جلست صفية وأمها تحكيها تفاصيل ما حصل، استغرابها كان جليّا حين ذكرت لها أمي رد فعلي البارد كأن الأمر لا يعنيني، وعدم خوضي في هذا الحديث بعد ذلك. وصلني حوارهما مصادفة لدى تواجدي بالمطبخ. لا أظن أنه سيأتي يوم تدرك فيه أمي أن ألمي لشماتتها بقولها (تهنّينا منهم)، كان أكبر من جرم سفيان برميهم في البعيد دون رحمة أو ندم.

لم ينبض قلبي بعدها لأحد، أو أحب شخصا إلا وراودني خوفي القديم من أنه لابد يوما راحل.

الآن نما فيَّ اعتقاد أن خوفي هو ما يسمح لهم بالرحيل بطريقة أو بأخرى. ليتني تيقنت من بقاء أحبابي، ربما كان قلبي تشبث بهم واستبقاهم.

تشبثوا بأحلامكم ولا تدعوا خوفكم يفلتها، تشبثوا بمن تحبون.

***

أشهر طويلة بعد أسر أبي، جاء خبر آخر أنه في سجن حكومي. ثم أنباء أخرى عن أنه بأيد غير ليبية، وإشاعات أنه بسجن جزائري وأن الأمن الوطني يبحث عن أعضاء شبكة التهريب، وعن مخابئ الأسلحة وأعضاء الشبكات المهرّبة. كان احتمال أسره في ليبيا البعيدة نسبيا أكثر أمانا لمن يقطن هنا خلف الحدود. جاء عمي مسعود يطرق الباب ليلا، يخرج إليه سفيان فيتحادثان فترة من الزمن. يدخل على إثرها سفيان هلعا، ويستدعي أمي يتهامسان عما جاءه من أخبار.

عمي مسعود سيرحل، حتى يهدأ الجو، سيرحل أبعد ما يمكنه، اتقاء احتمال أن تكون الإشاعات صحيحة، مخافة أن يصل إليه الأمن الباحث عن باقي أعضاء شبكة التهريب. ولا ينوي الرجل أن يترك عائلته بلا معيل، ولا أن يقضي ما تبقى من عمره في السجن.

يكفي أمي أن رجل البيت في علم الغيب لا يعلم مكانه ولا مصيره إلا الله، ولن تغامر بخسارة ابنها أيضا، هذا احتمال لا تستطيع أن تتخيل حدوثه، ويقرر الاثنان أننا يجب أن نرحل، نرحل سريعا وكما قال عمي مسعود، نبتعد إلى أقصى ما يمكننا.

سفيان كان قد قضى عطلة صيف في تونس منذ سنتين، كان قد تعرّف إلى شباب من ولايات حدودية، وقد احتفظ بعناوينهم وهواتفهم، ويتواصل أحيانا معهم، ربما قد ينفعه ذلك الآن. لكن أمي كانت تقول أن تلك مسافة بعيدة جدا لتقطعها عائلة كاملة، وتساءلت أين يمكن أن تذهب بنا وكل أهلنا

ومعارفنا في إيليزي، نحن الذين لم نغادر هذه الولاية أبدا. إلا سفيان الذي أكّد لها على لسان عمي مسعود أن الابتعاد بهذا القدر أفضل حل حاليا، وبعد أن تهدأ الأوضاع سنرى ما نفعل.

باتت أمي ترتب التفاصيل في رأسها، تحادثني ثم تحدث نفسها في استفهامات كثيرة، تتساءل عن مصير دراستي، ولم يمض على افتتاح الموسم الدراسي غير ما يقارب الشهرين. تتساءل أين سنسكن، وكيف سنعيش، وماذا سنأخذ معنا، وكيف نترك بيتنا وأهلنا ونرحل. لم تكن أمي تسألني لأجيبها، فقد كانت تعرف أني مثلها لا أملك جوابا، وأن القادم من الأيام علمه وتدبيره عند الله وحده.

قضيت النهار الموالي مع أمي في ترتيب الأغراض بين ما نأخذه و لا نفعل، وفرز الملابس بين ما نطويه ليبقى، وما نضعه جانبا ليرصّ فيما بعد في الحقائب التي سترافقنا إلى المجهول.

ألغت من حساباتها ملابس الصيف بما أن الشمال أكثر برودة، والشتاء آت، والفراش والأغطية لأنها تستلزم مساحة كبيرة لا تتوافر في وسائل النقل، فسنشتري بعض الأفرشة حيث سنقيم. وكذلك الأمر بالنسبة إلى الأواني. رتبنا بعض ما قررنا أنه سيرافقنا، بينما كتبت على ورقة بعض المستلزمات التي عليها شراؤها قبل السفر.

في الغد قصدت رفقة أمي سوق السبت الشعبي، ويحمل اسمه من اليوم الذي يقام فيه، حيث يتجمع الباعة والتجار في مساحة شاسعة مخصصة للقائهم الأسبوعي مع المتسوقين طالبي السلع

المختلفة، ملابس، أواني، أحذية، مواد غذائية، خضر وفواكه وكل ما يخطر بالبال من بضائع، نصبت لعرضها برّاكات على أعمدة حديدية، وبضاعات أخرى بسطت على مفارش بالأرض، فيما فضّل تجار آخرون إبقاء سلعهم بشاحناتهم المغلقة وعرضها من خلال أبوابها الخلفية أو الجانبية.

تعج السوق بالناس، وبهمهمات غير مفهومة يخترقها صوت عال من هنا وهناك، بائع يعلن تخفيضات خاصة على ماركات لأبطال المسلسلات، دون أن يكون لها في الحقيقة علاقة بهؤلاء المشاهير، سوى أن النسوة يحببن المسلسلات. والتجار يستغلون ذلك في كسب المال والترويج لم يبيعون.

أما نحن فنحتاج حقائب سفر، وفي جهة الأغراض المستعملة وجدنا طلبنا، السعر هناك مناسب، فأمي تفكر في تخفيض المصاريف إلى أدناها تحسُّبا للآتي، كما أننا لا نستعمل الحقائب كل يوم.. كانت تقول.

وجدنا طلبنا، أنواع وأحجام وألوان مرصوفة للعرض، لا تشبه إلا أصحابها، تستوقفك حواشيها الباهتة جزئيا لتحكي لك عن الأماكن التي زارتها، عن الأحلام التي سافرت إليها، وعن الخيبات التي وضبت بها. تحكي لك عن المطارات والأحباب ووداعهم، عن حيوات جديدة بدأت وأخرى أغلقت أبوابها إلى الأبد أو إلى حين. أحزان وأفراح تبقى هي وحدها شاهدا صامتا عليها.

أفتح إحداها فإذا بها مُنصّفة بقطعة عريضة، مما بدا لي

صفيحة بلاستيك مرنة مغلفة بنفس القماش ذو نقشة المربعات الذي بُطّن به كامل الجزء الداخلي من تلك الحقيبة الضخمة ذات العجلات، والجيوب والسحّابات في كل اتجاه، لطالما كان للأشياء مفرطة التنظيم تأثير سيء عليّ.

إن ملء كل تلك الجيوب والأقسام بالأغراض والملابس والحاجيات يتطلب وقتا، لا يمكن أن يكون متاحا لجميع من يلزمهم الرحيل. ليس الكل بحاجة إلى حقيبة تصلح للسكن.

يجب أن أصنع لنفسي حقيبة بحجم يناسبني، ليس بها جيوب خلفية أو مساحات شاغرة للذاكرة، الذاكرة التي نهرب منها، نخاف أن تترصد بنا في كل بيت لم نطأه بعد، في كل سرير مرتب لا ندري إن كان دافئا بما يكفي ليستبقينا.

حقيبة لابد أن تكون للنسيان، لا تحمل وجوها ولا عناوين ولا أرقام هواتف، لا تشبه أحدا أو مكانا نعرفه وإلا لن تكون إلا لرحيل يهيئ نفسه لسفر جديد.

لن يكلف الهروب نفسه عناء صنع حقيبة خاصة، لأنه ربما لن يحتاج إلى حقائب.

أنا لا أحب استعمال ما كان لغيري في مطلق الأحوال، اكتفيت بأقل ما وجدته تعقيدا، جوف موحد بأحزمة داخلية مثبّتة، ونقوش على شكل مربعات حمراء. كل تلك الفوضى أشعرتني بالدوار، كما أتعبني فضولي تجاه كل ذاك الكم من الذكريات الخرساء. تبدأ رائحة المكان الغريبة بإزعاجي طلبت من أمي الإسراع بالعودة، بما أنها أنهت اقتناء طلباتها، لم

نتأخر أكثر وقصدنا البيت حيث تنتظرنا أمور كثيرة نقوم بها، وأغراض علينا إكمال توضيبها والاختيار بينها لحمل الأهم والأكثر استعمالا، فالسفر لا يحتمل حزم كل شيء.

***

بعد كل تلك السنين مازالت رائحة عنبر جدتي، وتوابلها المنزلية تراودني، رائحة الدفء. صدى دقاتها الرتيبة على ذلك المهراس النحاسي تشعل حنيني، تشعرني برغبة في الركض والارتماء في حضنها الآمن هربا من هذه الوحشة.. فكل الأحضان بعدها باردة.

في ذلك الزمن كان كل شيء يبدو جميلا.. كل شيء يبدو كبيرا ممتدا وبلا نهاية، كتلك الصحراء البعيدة الآن. الصحراء بحكمتها، بثقتها، بقوتها الصامتة حينا والهادرة أحيانا. والتي لا يمكن أن يدّعي معرفته بها من لم تتحسس بشرته رملها ولم يلفح وجهه حرها، ولم يفك لغز مزاجها المتقلب.

لا يوجد ما يضاهيها هنا مع كل هذه الوجوه المتشابهة والعمارات العالية، والمباني المتراصّة كأرانب جزعة تهمس إليك بحكايا تتكور مختبئة من الألسن خلف أبوابها الموصدة، والزرقة التي تنتصب إلى اللانهاية حيث يخيّل إليك أن السماء على مرمى حلم.

الرذاذ البارد يتحرش بالأرصفة، وغيوم متدافعة تكاد تحجب النور، صبية تتراكض، وأنا في ذلك الصباح أرسل بنظري إلى آخر الشارع ليضيع على الإسفلت المبتل.. سابقت أحجار

الطريق لأتفادى تأخرا لن يلومني عليه أحد. شعرت بنشاط مفاجئ كأني كنت على موعد مهم مع تسكعي .. خبأت يدي في جيوبي ورحت أقفز لتتطاير على كتفي ضفيرتاي الطويلتان اللّتان تعاندان الريح ولا تباليان بالمطر، أنط وأنط وليس من هم لدي بل كأن كل العالم لا يعنيني.. تعنيني فقط دنانيري التي تشبثت بها قبضتي.. بينما لمعت عيناي بفرح طفولي، وأنا أسارع إلى دكان الحارة.. يفزعني صوت سيارة تتوقف فجأة .

- ألا تنتبهين؟

أفيق على صوت حانق يصرخ بي، بينما يرتفع بيننا زجاج سيارته لينعكس عليه وجه أسمر مخبأ خلف نظارة كبيرة.. وجهي؟ كم تغيرت يا غالية.. كم كبرت ولم تعد لك ضفائر طويلة تتقافز على كتفيك، و عيناك لا تلمع لأنها لم تعد تضحك..

آه أيتها الصحراء كم أنت بعيدة وكم أشتاق إليك. شوارعك المشمسة حد الوجع، طفولتك المرسومة بعود خشبي على طرف الطريق المترب مربعات للفرح غير المشروط.

أصعد الدرج بسرعة كأني أهرب من أحد، بل من تلك الذكريات التي هجمت عليّ دفعة واحدة.. وأغلق الباب وأخبّئ في صدري المفتاح.. أهرب من مدينة لا تشبهني ولا أشبه فيها نفسي.. أندسّ في فراشي وأغمض عيني كما كنت أفعل في حضن جدتي لأستعجل الصباح في الليالي التي تسبق العيد..

هاتف ملحّ يوقظني ..

- أين أنت حتى الآن ؟

- صباح النور حكيم..

- صباح النور؟ إنها الرابعة بعد الظهر.. لمَ لم تأتي؟ لا تقولي أني أيقظتك !

- إيه. كنت نائمة.

- نسيت موعدنا كان عليّ أن أخمّن. أنا أنتظرك في المقهى المعتاد، لديك ٥ دقائق لتأتي وإلا...

- حسنا حسنا.

حكيم . صديقي الحقيقي الوحيد، والذي يحفظني كما يقول "عن ظهر قلب"، كان ينتظرني في المقهى فيما قال أنه موعد لا أذكر عنه شيئا.. غالبا هو يقول هذا لكي لا أتحجج بشيء وأذهب إلى موعد وهمي ضربه لنا وما عليّ إلا التلبية.

- وش راك حكيم ..

- الحمد لله مليح وانت ؟

- نظن مليحة.. ونشرب قهوة بلا سكر.

- نجيب قهوة للحنّونة بش تحكيلي وش بيها

اليـوم.

- مـاذا أحكـي لـك يـا صديقـي.. أنـا بخيـر فقـط أشـعر بالغربـة. لا أتعـرف علـى نفسـي، هـذا مـا فـي الأمر.

أبتلـع القهـوة لعلـي أصحـو.. ينظـر إلـيّ حكيـم كأنّـي أقـول مـا يثيـر الاسـتغراب. مـع أنـي لـم أقـل شـيئا..

-اهه..

أُقطب حاجبي استفسارا..

- وش نحكيلـك؟ مـا كايـن والـو.. تعبانـة شـوية بـرك..

تحفظني "عن ظهر قلب" ؟ أعرف..

حـاول حكيـم أن يسـتدرجني للحديـث واضعـا قبضتـه تحـت ذقنـه.

لـم يتحـدث. ظـل ينظـر إلـيّ طـوال الوقـت، ينظـر كمـن ينبهـر بمدينـة ألعـاب مضيئـة فيمـا تـزداد حدقتـاه اتسـاعا.. وتـزداد عينـاه البنيتـان علـى بريقهمـا سـحرا..

السـحاب فـي الخـارج لا يكـف عـن النحيـب، والدنيـا حوالـي السـابعة أو تزيـد بتوقيـت الشـجن.. خطـر لـي أن أمشـي تحـت

المطر فأخذت حكيم من يده وخرجنا..

كنت أُشرّع قلبي على تلك الرياح الباردة لعلها تعصف بذكرياتي المخضبة، تدوخها في الهواء كما تفعل بأوراق الشجر اليابسة. تجمعها في زوابع صغيرة وتأخذها بعيدا.. يتشبث حكيم بذراعي حرصا عليّ..

لا تخف يا صديقي فليس هناك من ضياع بعد الضياع.. كيف أخشى البلل بعد الغرق؟..

حرّر قدميك، دس برك الماء المنبسطة بقوة. دع الماء يتطاير. در.. ارقص.. ارم عنك المطرية وتغلغل في البلل. لا تكن قط منازل مدللا، فالدفء الحق لا يختبئ في الفرو بل ينبع من الداخل. انظر.. انظر كم أنت دافئ رغم هذا الصقيع. دفّئني، احتويني كما فعلت دوما. لا تتركهم يجعلون مني دمية شمع لا تعيش إلا في متحف. فأنا لا أحتمل أن تُطفأ الأنوار بعد مغادرة الجميع، وتزحف الوحدة إلي..

أفتح عيني وأنا في البيت، أعادني حكيم، وضعني في الفراش ليلة البارحة ورحل بعد أن اطمئن أني غططت في النوم وأوصى ميمي بي، رفيقتي في السكن، بإلحاح حتى اعتقدت أني مريضة. ترك لي ورقة صغيرة قرب السرير: "تركتك ترتاحين.. سأتصل بك في الصباح".

لا بد أنه في الأستوديو الآن.. أجهز نفسي لأذهب إليه وأساعده، اليوم نهاية الأسبوع و العمل كثير.. للمدن مزاجات جماعية تملأ أستوديو حكيم للتصوير بالزبائن: صور لبطاقات

التعريف أو جوازات السفر، صور عائلية أو خاصة، تحميض فيلم لزفاف أو لمناسبة عائلية.. ويحدث أحيانا أن يأخذ البعض صورا ولا يعودون لأخذها، فنضعها في درج "للأغراض المنسية" كما يسميه حكيم، ونتركها في انتظار من يطلبها.. أحيانا تظل لمدة تصل إلى أشهر في الدرج قبل أن يأتي أصحابها لأخذها متحججين بسفر أو مرض أو ظروف "غامضة" لا أعتقد أنها تعدو أن يكونوا قد نسوا بكل بساطة أو تخاذلوا.. يعودون بعد مدة للبحث عنها ومرات تبقى تشغل الدرج لأجل لا يعلمه إلا الله..

حكيم منهمك في التقاط الوجوه وحبسها في أوراق، تضحك عيناه عندما يلمحني أدخل. يرد التحية بسرعة ويسلمني مهمة استقبال الزبائن، ويتوجه إلى الداخل ليقوم بأخذ صور زبائن كانوا بانتظاره.. "الشاب حسني" يغازل حبيبته من المذياع ويغني "ما يهناش خاطري" وحكيم على انشغاله يدندن ويتمايل برأسه تجاوبا مع الأغنية التي تملأ المكان.. كان مولعا بالشاب حسني وبالتصوير وبي، اقترب مني خطوة.. نظر إلي بافتتان من يرى معجزة كما يفعل كل مرة، وقال: الحزن لون لا يناسبك.. لا تلبسيه بعد اليوم، هذه العيون لم تخلق لغير الفرح.. "تفاهمنا؟". قال هذا بحنو أب محب وبنبرة خبير يقدم نصائح واثقة ولا ينتظر النقاش ملمّحا لليلة البارحة.. فأومأت بالموافقة وابتسمت.

كنت أعمل عنده أو معه كما يحب أن يقول مصححا. ذلك أني أدخلت البهجة على حياته ولوّنتها بالفرح الذي لم أنل منه

كفايتي. أساعده في العمل، حيث لم يبخل عليّ وعلمني جل ما يعرف عن التصوير، حتى صار يستطيع الاعتماد عليّ لأفتح المحل عنه أيام سفره أو انشغاله. عندما نغلق مساء نتعشى معا أنا وهو كل يوم. يوصلني إلى الشقة التي أسكنها مع ميمي صديقته والتي أصبحت صديقتي بعد أن عشت معها في هذا البيت لأكثر من عام. فترة كانت كافية لنصبح أعز صديقتين، تلتزم كل منا بشؤون حياتها دون أن تتدخل في الأخرى إلا بإذن وطلب منها. هكذا عشنا طول هذه المدة في هدوء ومن دون أي مشاكل.. كانت تعمل في صالون للتجميل لذا كانت شديدة الاهتمام بمظهرها وهندامها فلا تخرج من البيت إلا بعد أن تكون قد أخذت نصيبها كاملا من الدوش مرورا بالسشوار والماكياج وطلاء الأظافر الأحمر الذي لم يغادر أظافرها مذ عرفتها، لكأنها ذاهبة إلى مناسبة مهمة.

كانت همتها عالية ونشاطها يصل أقصاه عندما ما يتعلق الأمر بالتزين أو الخروج والتنزه.. كأنها طفل يفرح بقطع الحلوى وينتظر نصيبه منها كل يوم دون أن يملّها.. كان جسدها الممتلئ وردفاها المحشوان لا يمنعانها من ارتداء ما يحلو لها من جينزات ضيقة وقمصان أو فساتين ذات ألوان فاتحة أو فاقعة..

لم تكن ميمي حسناء إلا أن بها سحرا غريبا لا علاقة له بالجمال ينبع من حيويتها وضحكتها التلقائية التي تجعل عينيها، المثقلتين بالكحل على الدوام الغائرتين تحت خطين سميكين مرسومين بدقة بقلم أسود، تبدوان بريئتين على

شراستهما.. كانت تحب الحياة وتحلم بالثراء. لا تؤمن بالحب ولا تثق بالرجال إلا بما يتفق مع مبدأ "هات وخذ". لم أكن أشاركها رأيها هذا لكني أحترم طريقتها في التفكير وفي عيش حياتها. قالت لي مرة بصوتها المتحشرج تخفضه مقتربة وهي تضيق جفنيها كمن يهم بالاعتراف:

- لو كنت بنصف جمالِك يا غالية، لو كانت لي عيناك وجسدك الجميل لما وجدتني هنا؟

- وأين كنت لأجدك؟؟ أجيب ضاحكة..

- لكنت إحدى البطلات في مسلسل ما، أو لكنت مغنية مشهورة وثرية جدا لا أتنقل إلا بالليموزين "أم ست أمتار"، ولا ألبس إلا من محلات باريس أو لندن الراقية.

تقول هذا وتقفز من مكانها.. تمسك بمشط كميكروفون، تتمايل وتبدأ بالغناء. تغني ما يخطر ببالها وتلوح لي كما يفعل مغنوا الرّاي الذين تعشقهم ليتجاوب معهم الجمهور. فأتجاوب معها وأتمايل وألوّح بذراعي وأردد معها ما أحفظ ونضحك.. نضحك ملء أصواتنا نكاية في الليل، نكاية في الوحدة.. تفعل هذا بكل حماس كأنها في حفل كبير أمام جمهور حقيقي. جمهور لم يكن إلا أنا وأحيانا معي حكيم في تلك الشقة العالية المطلة على الساحرة عنابة الساهرة على صوت البحر. الشقة التي احتضنت جدرانها أحزاننا، أشواقنا، هزائمنا وأحلامنا بغد يمسح عن أرواحنا المتعبة أعمارا من الخيبات..

***

صوت ميمي الذي يتغير كلما تحدثت إلى أي رجل يعجبها كبائع مثلا، يصبح أكثر غنجا ونعومة. كنت أندهش لهذا التغير المفاجئ في البداية حتى تعودت وصرت اعرف مسبقا أن تلك النبرة ستنطلق. إنها لا تخدعه، بل تبعث له رسائل مشفرة يلتقطها بدوره، ويرد عليها بنظرة ماكرة، أو حاجب يرتفع قليلا بينما يبسط بضاعته عارضا إياها مع عضلاته أو متذرعا بها لإبقاء المثيرة وقتا أطول.

لهاته المرأة طباع غريبة ورغبات لن افهمها أبدا، فيما كنت أكتفي برأي المرآة في، قبل أن يبدأ إعجاب الآخرين المزعج في محاصرتي وإزعاجي، كانت هي تفتكّ المغازلات عنوة ممن تريد. أحيانا كانت تراهنني على ذلك قبل أن نغادر البيت إلى أي مكان، كنت أعرف مسبقا أنها قادرة على النجاح بعدما خبرت ذلك بأم العين، وأقول ضاحكة: لا أبرم مراهنات محسومة يا صديقتي، أنت الفائزة منذ الآن.

على الرغم من اختلافنا كنت مبهورة بها، طاقتها المتدفقة، اندفاعها، جرأتها حتى في تقدّم صدرها عليها أثناء سيرها، لم تكن تهتم يوما لرأي أحد فيها، فهي تعرف (وش تسوى) كما كانت تردد، وتثق تمام الثقة أن الرجل الوحيد الذي لا تستطيع إثارته وإغراءه، لم يولد بعد.

لم يكن يهمني أن تكون ما تريد، لأني كنت أرى أن جوهرها ناصع على عكس الآخرين، وكنت على يقين أن

خلف تلك الضحكة المجلجلة ألما تُكابر في إخفائه خلف طبقات من مساحيق التجميل. فقط المتألمون يضحكون بتلك الطريقة، خوفا من ضعفهم، من الشماتة أو الشفقة، خوف أن يستطيع أحد في لحظة صمت أن يلمح دواخلهم الخارجة من الحمام من دون تجميل أو مناشف.

كان لها عدد رهيب من المعارف، تعاملهم بقدرة هائلة ومتبادلة على النفاق والمجاملة، قدرة استحال عليّ مجاراتها، ولا سهل عليّ التعامل مع أولئك الرجال مريبي النوايا ونظراتهم الذئبية والعبارات المنمقة التي تضمر أكثر مما تبدي.

أمّا هي فأجادت تلك اللعبة حدَّ الإتقان، "تعرف كيف تعيش"، هذا كان رأيها. هوسها الثياب وافتكاك إعجاب الجميع لأغراض مختلفة، والسعي بكل طريقة ممكنة خلف الثراء.

لطالما بدت لي أحلامها حول الغنى شبه مستحيلة، إلى أن جاء يوم دخلت فيه الأستوديو حيث أعمل، ونصر مدوّ يسبقها إليّ.

تعالي. لِدي مفاجأة لك (سحبتني من يدي قبل أن أحاول الفهم) ، أعرفّك: سيارتي هذه صديقتي العزيزة غالية، غالية هذه سيارتي.

الدهشة لم تسمح لي بالتفكير ولا لحاجبي بالارتخاء.

- سيارتك؟

- ألم تعجبك المفاجأة؟ أليست رائعة؟ صحيح أن صاحبها استعملها عدة أشهر لكنها مازالت تبدو جديدة تماما، لقد تأكدت من محركها وكل قطعها الداخلية. ها، ما بك؟

خطر لي ألف سؤال معا، لكني كنت على يقين أنها لن تقنع فضولي ب"الرّسمي" والذي هو الحقيقة، من أين حصلت على سيارة فجأة، كانت تحتفظ في سرها به، عميقا حيث لا يصل احد، حيث تخبئ خيباتها وطرقها المريبة والمتجددة، التي تمعن في ارتكابها وإقناع نفسها أنها انتصار بطعم ما. ولم أعرف أيّ يد بالضبط قد تأكدت من قطع ميمي الداخلية قبل أن تُمكنّها من امتلاك تلك السيارة.

لم أرها يوما بهكذا سعادة، ولا أظنها رأت نفسها، على الأقل ليس قبل وقت طويل، يوم كان لها اسم وبيت ومدرسة، زمن لم تحب من قبل الحديث عنه، إلا لمخداتها، التي تسرها أوجاعها، تدفن وجهها فيها لتفارقها صباحا ببقع من الكحل وعيون متورمة.

المخدات لا تحب الثرثرة، لذا وثقت بها تلك المرأة الجامحة التي علمتها الحياة ببضع صفعات موجعة ألا تثق بأحد. وأنا تعلمت منها أن القلوب أسرار، وأن لبعض الانتصارات طعما مرا.

كما انتصار أخيها يوم رماها للشارع وكان على يقين أنه سيتبنى خطاياها، سيسقيها فتربو، وكان على يقين أيضا أنها وحدها ستتحمل وزرها. بعد الآن ليس أمامها إلا أن تكون

"عارا". أنشب مخالبه في ذراعها الطري ورمى بها إلى الطريق. عندما تصبح "بنت شارع" لن يلومه أحد على تبرّئه منها.

الليل لا يُعيّر الناس، ليس للعتمة مقاييس جمال ولا أخلاق، الجميع فيها متساوون، متشابهون، و"أولاد فاميليا".

على الطريق أن يتلقف مريم من يد أخيها المستريحة وهي ترسلها للظلام وتصفق خلفها الباب.

- أخرجي يا كلبة. لم يكن أحد يستطيع أن يوقف ذلك.

لابد أن أخاها لم يكن طويل القامة، ولم تكن ليده كف عريضة، فطوال القامة ذوي الأكفّ العريضة لا يفعلون ذلك بأخواتهم.

إنها خطيئة، لذا كان عليه أن يتخلص منها، لا أحد يرغب في الاحتفاظ بخطيئة.

كانت في السابعة عشر من عمرها حين أحبت شابا، هربت معه في قصة رومانسية بعدما خسرت شرف عائلتها على فِراشه. بعد أيام، ضاقت بها السبل إلا إلى باب أهلها الذي أُغلق في وجهها تلك الليلة. لم تجرؤ بعدها على العودة، ولا على السؤال حتى عن أمها المريضة حسرة عليها. لابد أنها لحقت والدها، والدها الذي يشيح بنظره عنها خيبة ومرارة في قبره.

ميمي أيضا كانت طفلة ذات يوم، كانت تستطيع أن تحلم

ذات حب، بشاب أسمر العينين يأخذها على حصان أبيض إلى بيت ينجبان فيه الأولاد. ولكنه لم يفعل، ولم يأخذها إلا لهاوية سحيقة، ليتركها على حافتها من دون حبال إنقاذ ولا مظلات هبوط، فيما تكفلت يد أخيها بكبّها فيها.

بعد ذلك، الله وحده يعلم كيف توالت الضربات على حياة مريم، كيف توالت عليها الأيدي القذرة والنظيفة.. لتتحول إلى "ميمي". مريم الطفلة التي حلمت ذات مرة، وأخطأت. فما كان لإخوتها الأربعة إلا أن يطردوها، يد أخيها التي كبّتها خارجا، ربما كانت أحن من يد الآخر التي جهزت لها مذبحة تغسل شرف العائلة.

فكرت مرات بعدها أنه لو ذبحها حينها، لكان أرحم مما أخذتها إليه تلك السيارة الغريبة ذات النوافذ المعتمة، والتي يعبق منها خمر ودخان قوي الرائحة.

ما كان عليها وهي تهوي في تلك الهوة إلا الاستسلام للسقوط. الاستسلام لقدرها.

"مكتوب". الآن فهمت لم تطلق ميمي تلك الضحكة الساخرة عند سماع هاته الكلمة، وأتخيل كيف كانت تكسرها من الداخل حكاياتي وذكرياتي القديمة، يوم كان لي أيضا عائلة وباب آمن.

هانت عليّ مصائبي، استصغرت كل ما رأيت في سنيني كلها، غربتي، خيباتي، وحدتي، فتات أحلامي، وأشواقي لمن أحب.. لكل ما تعودت عليه، أمام وجعها الصامت ووجهها الضاحك.

ماذا كانت تخفي تلك المرأة العجيبة خلف متاريس من الضحك والمساحيق. لابد أنها تركت قلبها على عتبة باب أهلها تلك الليلة، وما تبقى من كبريائها ألقته مع أول نفس من سيجارة ملفوفة في تلك السيارة معتمة النوافذ.

أدهشني كيف استطاعت طوال هذا الوقت، إخفاء حكايتها وأوجاعها حتى عنّي، أنا التي أعيش معها منذ زمن. لعلها أخفت مريم حتى عن نفسها محاولة نسيانها.

عندما بدأت ميمي تروي لي حكايتها تلك الليلة، لحظة بدأت ألاحظ نفسها يضيق بكل ذلك البوح، أمسكتها من يدها إلى المطبخ، وحملت صحنا وقذفت به إلى الحائط.

ما أروع ما يمنحه إياك صوت الارتطام والتكسر، وتناثر القطع والشظايا على البلاط. يخرس كل صوت آخر.. كل الوجوه والذكريات المتزاحمة في رأسك، دفعة واحدة.. تتهشم.

هذا ما فعلته عقب موت جدتي، البكاء لم يجد طريقه إليّ. دخلت المطبخ، وحملت ما وصلت إليه يداي مما يصلح للكسر، وحطّمته. لا أحد في البيت فهم ما حصل معي يومها، لكن أحدا لم يسألني بعدها عن نوبة الجنون تلك، كما كانوا يرونها. اكتفت أمي بمساعدة أخي بجرّي إلى فراشي، حيث بكيت بحرقة ذلك الكمّ غير المحتمل من الفقد والغربة، بكيت العالم الذي أخذ مني كل الدفء دفعة واحدة، ونمت.

لمّا تدفقت آلام ميمي وضاقت بها، أشرت إليها أن هذه الصحون تنفعك الآن محطمة أكثر منها مرصوفة، كما فهمت

من وقع ذلك الصحن وهو يستقر حفنة من زجاج على أرض المطبخ. قذفت بكل منها بما أوتي ساعداها من قوة، وتلذذت بمشاهدتها تتحول إلى فوضى عارمة. قذفت بها على وجه حبيبها الشاب الذي تخلى عنها ضعفا، أخيها وهو يرمي بها إلى كلاب الليل.

رمت بها على كل من وضع يده القذرة على مريم ولوث طهرها. وعلى الحلاق الذي قص شعرها كيلا يدنّسوه، كان يوما لحبيبها ولن يكون لغيره. وعلى تلك السيارة معتمة النوافذ وكل من كانوا داخلها. حاولت إخراج كل القهر من داخلها وهي تضرب الحائط بآخر صحن، وانفجرت باكية.

لم أعرف أبدا ما حصل لها تلك الليلة مع السيارة، ولا بعدها. فأيّ منا لم تفتح الحديث في الموضوع بعد ذلك.

بكت ليلتها أيضا. ونامت.

بقيت أرقبها، أشاهد تلكِ الصغيرة ممتلئة الخدين تبتسم، لأن اسمها مريم، ولأن لها أمّا وبيتا ومدرسة، وحبيبا تختلس مكالمات هامسة معه حين ينام الجميع.

نامت متشبثة بيدي، وأغرقت نفسها في تفاصيل نسيان قادم.

يستحضرني مشهد من فيلم أجنبي، كان فيه شاب ينفض عن ركبة ابنته غبار سقطة، ويضمها ليبعد ذعرها.

إنها مجرد سقطة صغيرة يا بنيتي.

وعليك الاستمرار في الوقوع لأن حضنا جميلا سيتلقفك كل مرة. مادام للجراح من يطهرها ويضمدها، وللذعر من يقف له بالمرصاد. كما للدموع من يتحايل عليها ويرسم منها ضحكة جديدة من القلب.. لا تلتفتي يا صغيرة، لا تلتفتي خلفك، فهناك دوما قامة تهتم بك، تبسط ظلها أمانا.

ليس عليك أن تخافي، ونامي يا ميمي. ما أجملك، والسلام يظلل جفنيك الغافيين! نامي..

بعد تلك الليلة، لم تعد صديقتي المرأة ذاتها، كانت كلّما التقت نظراتنا أحست أن جراحها تعرّت أمامي، وأني أتلصّص على نزيفها الغض.

تكسر قناعها الضاحك. وأغلق فمه.

***

المكان بيتي، بهو يتوسط غرفتين لم أكن بحاجة لأكثر منهما. وحمام صغير في أقصى الزاوية اليسرى، قبالة باب الشقة مدخل شرفة واسع، حيث طاولة صغيرة مسقوفة بلوح زجاج مستدير وعدة مقاعد خشبية في ضيافة البحر، حيث تحلو جلسات اتاي.

البحر بعيد من هنا، يقع على بعد عدة أحياء وطرقات تصطف على جانبيها مبان عالية. لكن على الأقل تستطيع أن أُصبّح وأمسّي عليه ولو من بعيد في تلك الجلسة المحاطة بنباتات متسلقة، نباتات صناعية من البلاستيك ونوع خاص من القماش،

إنها ليست حقيقية، ولا تحتاج لعناية ولا ماء ولا حتى تراب. لكنها قادرة على إقناعك بأنها جديرة بالتواجد هنا. تضفي شيئًا من الحميمية على المكان، من دون تطلب.

بينما تكون على يقين أنها ستبقى نضرة إلى الأبد، لا تذبل، ولا تصفرّ، لا تمرض ولا تُضيّف الحشرات. يكفي مسحها بخرقة رطبة ليعود إليها الألق حالا.

أوراقها لا تكف عن الاخضرار، والتشبث بذلك السياج الخشبي المعلق على جانبي الشرفة. إنها هنا ما لم تقتلعها عنوة يداي وعن كامل قصد، مللا أو استياء. يداي هاتان، ذاتهما من اقتنى تلك الحبال من الأوراق الخضراء لتذكرني دوما أن الربيع كان هنا، وحتما سيعود. كلقطة كاميرا تصوير جمدت الزمن عن نضارة تلك الأوراق، بسيقانها النضرة وزهورها التي لمّا تتفتح بعد.

التقطتها، لتمنع عجلة الوقت من المرور عليها، صورة للحظة بقاء أبدية. كما هو الحال لتلك الصور التي يلتقطها حكيم، فيبقى أصحابها شبابا إلى الأبد، داخل إطار خشبي، ومبتسمين في وجه الأيام، غير آبهين لتقلباتها.

يتوسط البهو أريكة سوداء من الجلد الصناعي، يتوزع حشوها المريح على مسندها بشكل يجعل ظهرك يشعر أنه يستلقي على مخدّة هواء. كم أحب تلك الأريكة التي تفيض استدارة على جهتيها الجانبيتين.

تنبسط تحتها زربية مستطيلة طبعت عليها زهور ملونة

مدروسة التشتت، تنتصب إلى الجانب الأقرب من الأريكة مائدة منخفضة زجاجية، تترك فسحة كافية للمرور والجلوس قبالة تلفاز مصلوب على الجدار، حيث يجلس حكيم بغير صبر. ما زلت أُحضّر ال"اتاي" بالطريقة الصحراوية ذاتها، يتأجج عبق النعناع فيغريه لاستعجالي بالإسراع في إحضار ال"اتاي" ، يتأفف كطفل ويبدأ برمي حبات "الكوكاو المحمصة" نحو فمه المفتوح ورأسه محني قليلا إلى الوراء، يطحنها جيدا بين أضراسه ويسحب خدّيه إلى الداخل، يتلذذ بملوحتها النسبية قبل أن يبلعها، بينما تداعب أصابعه الحبات الأخرى بالصحن أمامه على المائدة الزجاجية، ليحمل حبة جديدة ويرميها داخل جوف فمه كما فعل بالتي قبلها.

- سأُنهي حبات "الكوكاو"، قبل أن يأتي شايك.

لك أن تنهيه إن أردت، بصحتك. إنما لا يمكنني الإسراع أكثر، هذا ليس قهوة مغلية، لابد أن يأخذ وقته.

عليه أن يتعلم الصبر هذا الشاب اللجوج دائم الاستعجال، للشاي الصحراوي طقوسه ومراحله التي لابد له من المرور عليها برويّة حتى أكواب الشرب، ابتداء بتغلية الماء وصبّه على أوراق الشاي الخضراء لغسلها، وإطلاق نكهتها. ثم نعيد الشاي مع ماء جديد إلى النار، فإذا وصل إلى الغليان نضيف إليه السكر بالمقدار المطلوب حلوا أو قليل الحلاوة، ثم أوراق النعناع العبقة. فيُصبّ على علوّ بائن من الإبريق إلى كأس تتداول معه على صُنع الرغوة بأسطح الأكواب.

***

تُجلسني ميمي على الكرسي المبطّن الدوار، قبالة لوح مرآة شاسع. لا تحب المآزر، ولا تستعملها إلا تسهيلا لعملها، برشقها بكل تلك المساسيك. تمشط شعري نزولا وصولا لأطرافه مرات عديدة، حتى تتأكد أنه مُسرح تماما، كل خصلة منه تنسدل منفردة متحررة من الأخرى. حينها تتحرك بخفة نحو الطاولة ذات الأدراج، والمثبتة على حوافها مقابس عديدة لمختلف كهربائيات الشعر: السشوار، البابيبليز، البلاك... وغيرها. تتناول مشطا طويلا مدبّب الطرف مخصّصا لتقسيم الشعر حسب الحاجة، إلى أنصاف أو مساحات تحدد عددها ومساحتها الخبرة الطويلة. أو تقسم الشعر إلى مربعات بالنسبة للضفائر الصغيرة كما تفعل معي ميمي، مربعات صغيرة متساوية على كل شعر الرأس، تلف كل خصلة من مربع وتلفها حول إصبعها بحركة سريعة لتضمها إلى مجاوراتها وترفعها بمساك بلاستيكي، فيسهل عليها سحبها وفكها واحدة تلو الأخرى لجدلها حتى قرب طرفها تقريبا، وتثبت آخر الضفيرة بمطاط صغير ملون.

أطأطئ رأسي قليلا كما طلبت مني بحركة من يدها، فيما تُعدل وضعيتي بما يتناسب والمنطقة التي تجدل خصلاتها، فإذا بلغت الجانب الآخر أدارت الكرسي الطيّع، حتى صرت أنا وجانبي الآخر أمام يديها.

لم أكن أشاهد إلا قدميها طول فترة الاشتغال على الجزء الخلفي من رأسي، قدماها بخفين أبيضين طبيّين، إنها تحتاط

لساعات وقوفها الطويلة.

بينما تسمح لي يدها برفع رأسي بحركة أخرى، متى بلغت منطقة أكثر تقدما نحو الجبين.

تضع سماعة أذن واحدة، تمنحها جوا خاصا، هي لا تحب الحديث أثناء العمل، أو لعله سوسو صاحب الصالون من لا يحب ذلك، فتبقي أذنها الأخرى حرة جاهزة للتواصل معه أو مع الزبونات.

أصابع ميمي المزهوّة بإنهاء تحفتها، تضّم زجاجة المثبّت الكبيرة وترُجّها، ترُش بها كل الجدائل من مسافة تسمح للرذاذ بالتوزع على كامل الشعر، مشكّلا هالة خانقة حولي.

تعجبني رائحة المثبت، لكنه ليس ضروريا على ضفائر مثبتة سلفا بدوائر المطاط تلك. غير أنه يمنحها لمعة جميلة.

لعلها العادة، والشعور بإضفاء اللمسة الأخيرة على مدة عمل طويلة. أحرك عنقي لأعيد إليه مرونته، بينما تحدق هي إلى انعكاس صورتي على المرآة التي تقف قبالتها، بنظرة لا تخلو من ثقة بجدارة يديها الماهرتين في تحقيق الجمال.

يراقب سوسو الجميع عبر المرايا التي تتوزع على أغلب الجدران، وينتقل إلى هاته وتلك، يبدي إعجابه أو ملاحظاته التصويبية، مرتحلا بخفة ورشاقة يسأل الزبونات عن مدى ارتياحهن لمظهرهن النهائي، ولا يغادر إحداهن إلا وقد أقنعها أنها بكامل فتنتها وسحرها وأناقتها، وصولا إليّ.

- واو، بصحتك يا لغزالة، شعرك هاا..يل. عجبك؟

- الله يسلمك. إيه، هكذا روعة.

ويشير إلى ميمي بضم سبابته وإبهامه كأنما يضع نقطة

- برافو ميمي! ويمضي في قاعة غزالاته يمتدح ويتغزل بكل واحدة.

فيما تبقى هي ترفع كل شعري وتضمه بيد أعلى الرأس وتسدل الضفائر إلى الخلف، فيما تسحب بعضها من الأمام لتشكل غرة جانبية، كأنها تري نفسها كم من التسريحات يمكن أن تصنع من شعر مجدول.

كانت تعاود فعل ذلك بأشكال مختلفة كلما أنهت جدل شعري. فأنظر إليها كل مرة عبر المرآة، وأبتسم.

سوسو، صاحب الصالون حيث تعمل ميمي، مصفف النخبة والمشاهير من أصحاب الملايين وزوجات رجال الطبقة المخملية للمجتمع وكذا المغنيات والممثلات.

إن موقع محله وحده، وفخامة تجهيزه وإضاءته المدروسة، والعدد الكبير لموظفاته المختارات بعناية، لأفضل دليل على ذلك؛ موظف استقبال يتكفل بتنسيق مواعيد الزبونات وتوجيههن إلى مختلف أقسام الصالون الكبير، حسب طلبهن: قص أو تصفيف الشعر، العناية بالأظافر، المساج، التاتواج، والعناية بالبشرة وغيرها. فلكل تخصص من هاته التخصصات

مساحة مبوبة للخصوصية، وموظفات مدربات على الخفة واللباقة زيادة على جودة النتيجة، فيما يتكفل سوسو بالجانب النفسي لزبوناته اللواتي يثقن بيديه ورأيه، لذا لا يقصدن إلا صالونه، حتى لو تطلب منهن ذلك ضرب موعد مسبق ودفع مبلغ طائل مقابل خدماته، إن مجرد تصفيف شعر إحداهن في هذا الصالون بالذات أو تدريم أظافرها يعد في حد ذاته "برستيجا" لا يتاح للجميع. ولم يكن ليُتاح لي لولا حكيم الذي أوصى ميمي بي توصية خاصة، كانت كافية لتكسر لأجلي كل تلك البروتوكولات.

جاء وقت التبرج، لتنقلني ميمي إلى جزء مبوب مجاور من الصالون الواسع، به طاولة عمل ضمّت أنواعا لا تحصى من أدوات الماكياج: فرش متعددة الأحجام، أقلام حمرة، ألواح كبيرة بها تقسيمات عديدة من ظلال الجفون، قوارير صغيرة بألوان لامعة وتدرجات متجاورة من بودرة الوجه وأشياء أخرى لم أعرف حينها تحديدا لأي جزء من الوجه قد تستعمل. وحدها يد الخبيرة تعرف ما الذي تحتاج استعماله لتبدأ بطمس الوجه الذي أمامها وإعادة رسمه، حتى لا تكاد صاحبته تتعرف إليه.

(ماكياج بسيط، تصوير)،هذا كل ما تكلفت ميمي لتقوله لزميلتها في قسم التبرج، وتمضي ساحبة الباب خلفها. إنها تعرف ما ستفعل، أشارت إليّ بالجلوس –وسط صمتي- على كرسي مبطن آخر، هذه المرة بمسند عنق، تحتاج رأسي متكئا ووجهي إلى أعلى.

يدها تمزج علبة مفتوحة بحركة دائرية.

- عدسات؟ قالت وهي تلقي نظرة عليّ.

- لا، إنه اللون الطبيعي لعيني. أجبتها وأنا أتساءل في سرّي عن عدد المرات التي يجب أن أجيب فيها عن هذا السؤال!

كانت تعرف أيضا ما يتطلبه وجهي كمية ولونا من كل مستحضر لازم على طاولة العمل على يسارها، لتصل بي إلى النتيجة المطلوبة (ماكياج بسيط، تصوير).

كان هذا التحضير لأول جلسة تصوير، ليكون بين يدي حكيم نماذج صور احترافية يفاوض بها على عقد عمل إعلاني لي، يفاوض مقتنعا تمام القناعة أني امتياز عال لأي جهة سأتعاقد معها، وأنا كنت أسلمه كل ما تعلق بالعمل، عن جهل مني وثقة به، كما سلمت وجهي لصاحبة ميمي لتجعل منه لوحة جاهزة لإعلان.

لم يكن التبرج كما توقعت من كلمة "بسيط"، فهذا معناه عندي سحب عود المكحلة الفضية تمريرا داخل جفنيّ المغمضين مرتين ذهابا وإيابا لكل عين. مرتان كافيتان لرسم عينيّ اللوزيتين بسواد الكحل العربي، وقليل من حمرة خفيفة، من عبوة بلاستيكية خضراء.

كل تلك المساحيق والألوان والأشفار الحالكة التي أثقلت عيني، تسميها ميمي وصاحبتها ليلي "بساطة". حتى الكلمات يختلف مدلولها هنا.

وجه يقابلني في المرآة. أهذه أنا؟! تساءلت في صمت. عينان واسعتان لم يحددهما السواد كما تعودتا، بل قلم أخضر اللون تكفل هذه المرة برسم الجفن الداخلي السفلي، ليزيد وضوحا لون بؤبؤين يلمعان انعكاسا لإضاءة القاعة المتوهجة، بشرة نضرة كما لم تكن من قبل، وفم شفتاه مكتنزتان لامعتان.

أصبحت جاهزة، وما على ميمي إلا الاتصال بحكيم ليأتي فيقلني. كان قد ضرب موعدا في أستوديو يعرفه للتصوير الاحترافي. فالأستوديو خاصته، بأجهزته التي بهرتني منذ بدأت العمل معه، لم تكن كافية هذه المرة لالتقاط الصور التي كان يهندسها في ذهنه، بإظهاره امتيازي بعينيّ.

جلست في قاعة صغيرة للانتظار، تشبه في حميميّتها صالونات البيوت، على مائدة يتوسطها عدد من المجلات المنوعة بين الأزياء العالمية وقصات الشعر، وشتى الاهتمامات النسائية.

أخذت أتصفح إحداها، حين جاء، يسبقه انبهاره بي، كأن هذا الانبهار جديد عليه، فأنا لم أعرفه إلا معجبا منذ اللقاء الأول، إعجابا صارخا لم يبخل بإظهاره أمام الجميع في أي مناسبة.

تُحرجني نظراته اللاهثة بين ملامحي، وتَلفُّته إليّ طوال الطريق إلى الأستوديو حيث ستؤخذ لي تلك الصور الاحترافية، على خلفية ناصعة البياض، وكاشفات ضوئية موجّهة، ووضعيات تصويرية طلب مني المصور القيام بها فكنت أستجيب بين كل ومضتين.

النتيجة كما توقع حكيم، وأكثر مما كنت قد أحلم، حين

رأيت الصور بعد انتهاء العمل عليها لم أكد أصدق، كأنها لنجمة من نجمات السينما، كانت انتصارا في حد ذاتها، وكان هو يطير بها سعادة ويشتعل حماسا. الآن يستطيع أن يفاوض بها على عقد محترم كما كان يخطط.

وجه إعلاني جديد مميز، لا يشبه غيره، وتجعله استثنائيا تلك العيون اللوزية المتفتحة في وجه جنوبي، ما كان ليكون لونها أخضر لولا رجل من هذه المدينة ذاتها، سافر منذ عقود إلى أقاصي الصحراء ليجد حبيبة عمره، فأجيء أنا إلى هذه الدنيا ببشرتها ولون عينيه.

كانت الشهرة والمال وقتها حلما بعيدا، لم أكن لأفكر فيه لولا ذلك الشاب المولع بي، كان يراهن على انتقال انبهاره بي إلى كل من يراني في لوحة إعلان، أو صورة مختومة بعلامة تجارية، كان يقول أن الثراء قدري، وكل ما فعله لأجلي ما هو إلا توجيهي إلى الطريق، أما أنا فلم تكن لدي خيارات أحتار بينها، فتمسكت بتلك الوجهة لأنها ستبقيني هنا على الأقل، فيما تفكّر عائلتي جدّيا بالعودة إلى إيليزي، حيث منزلهم وأهلهم وحياتهم التي اعتادوها، تلك الحياة التي لم تعد تشبهني.

لم يكن أحد في البيت يعلم شيئا بأمر الإعلانات التي يخطط حكيم لإدخالي عالمها، ولم أكن أنوي إخبارهم حتى أبلغ نقطة اللارجوع، حيث أكون قد وقعت عقدا إلزاميا ولا يمكنني التراجع عنه أو إلغاؤه. وأكون بذاك قد وضعتهم أمام أمر واقع لا يملكون حيال تغييره شيئا، فيستكينون ويقبلون. كنت قد قررت أنهم سيعودون من دوني في كل الحالات.

بدأت لحظتها أشعر أني قادرة على عيش الحياة التي أريد من دون تدخل أو سيطرة أحد.

***

بعد كل ذلك الزمن، مازالت ميمي تذكر ارتباكي الأول، ونظرتي المنبهرة البريئة منذ دخولي صالون التجميل يومها. وتذكر حديث الحاضرات عني وسؤالهن إياها بعد خروجي من عندها عمن أكون، وطبعا عما إذا كانت عيناي طبيعيتين أم أنهما مجرد زيف صناعي آخر.

أتساءل، إن حدثت معي معجزة وأُتيح لي العودة بالزمن لأختار كيف أريد نفسي، أكنت لأفضّل غالية بنت الصحراء بُنيّة الأقدار؟ التي ربما كانت لتحلم أن تكون روبي بعملية تحويل لون العيون إلى الأزرق ببضع لحظات من التعرّض لضوء الليزر. إذ أن كل الأحداق زرقاء الأصل كما يقول الطبّ.

أم أني ببساطة أعيد اختيار قدري، وأقبل بإرثي من الغربة والاستثناء؟

تذكر ميمي أيضا يقينها بنجاحي منذ ودعتني على بابها الزجاجي المنزلق، والذي كانت تذكره أكثر، الذي كانت على يقين منه أكثر، عشق حكيم لي والذي لم تر مثله أبدا، هذا ما عرفته منذ أن اتصل بها ليوصيها بي توصية خاصة جدا، عرفت حينها أنه لم يكن حرص نجاح لأجل العمل فحسب، بل حرص رجل على امرأة سلبت قلبه.

لكني لست حبيبته، أحبه كما تفعلين أنت. إنه يستحق كل خير. (قلت لها)

لكنه لا يريد الخير، إنه يريدك أنت، ألا ترين؟ بحقك. هل قابلت رجلا يوما يمنحك عُشر ما يفعل من دون مقابل؟ أنا أعرف الرجال جيدا وأعرف أنانيتهم، لكنه مختلف، مختلف تماما. إنه يـُ..ح..بُّ..ك، كفاش نفهمهالك؟

- لست بحاجة لأن تفهميني شيئا، "أريد أن أنـاااااام".

وهي عبارة تعرف ميمي أني أريد بها تغيير الموضوع لا النوم، تتفهم الأمر لحظتها، لكن كلتينا تعرف أنها ستعود إليه. على الأقل أستطيع النوم الآن استعدادا ليوم جديد.

لم يكن الأمر أني لا أعلم أو لا أستطيع تقدير أن هذا الرجل الذي احتواني وأحاطني بكل ألوان العاطفة، وكان لي العون والحماية والدفء، أحبني حبا لم يسمح له برؤية امرأة سواي، وفعل كل ما استطاع لدفعي إلى النجاح، وأبقاني بأمان حتى من نفسي.

كنت أعرف دون أن يقول لي كلمة واحدة، ما فعله لأجلي كان أكبر من الكلام. تفضحه كل تلك الصور التي تتزاحم على هاتفه وحاسوبه المحمول، واتصالاتُه، إنه مسكون بي.

أحب علاقتي اللامشروطة به، من دون قيود ولا تعقيدات ولا أطر، ما دام هو على ما هو عليه، وما دمت أنا بقربه.

لا أحد، لا امرأة ولا رجل له حضن كحكيم، لا أحد تتحول ذراعاه إلى جوف بذاك الحُنوّ حين يضمني، يُشعرني بأني جنين في رحم. له تلك القدرة على بَثّي دفئا مركزا، أول مرة ضمني أحسست أنه يطمئنني أنه سيظل موجودا، ولا يهم إن اشتد الصقيع في الخارج أو انطفأت الشمس. قلبه كان ينبض بقوة، لم أكن قد أصغيت منذ زمن بعيد إلى صوت صدر بهذا القرب، أرخيت عنقي وأطرقت أنصت لذاك النبض وأصابعي تشتد تمسكا بظهر قميصه الأزرق المكوي، كنت أحتاج إلى الأمان وصدره يطالبني باللجوء العاطفي إليه.

كان رجلا تكفي تمريرة واحدة من كفّه العريض على رأسي لنسف كل همومه وضفائره الرفيعة، وإعادته في لحظة إلى جديلتين صغيرتين، كانتا قد سُرحتا بمشط رفيع وزع تلك الزيوت العطرية المنزلية الصحراوية على كامل خصلاته الشهباء.

***

أمي، كانت تشتاق إلي وتتصل كل فترة، على الأقل الدخل الذي يأتيها مني بقي ثابتا، على عكس اتصالاتي. لم تعد تسألني إن كنت سأزورهم قريبا، يئست من هذا أيضا، لم أقصد بيت العائلة ولا مرة بعد عودتهم إليه. زمن يبدو بعيدا كحلم قديم.

أخي لا يتواصل معي منذ ذلك الوقت، فقط صفية تفعل، حيث لا أكاد أستوعب ما تقول وسط فوضى أطفالها، لها أربعة منهم اثنان وُلدا بعد رحيلي، لا أعرف عنهما غير الاسم والشكل من

الصور، أما هم فيعرفون أن لهم خالة بعيدة تسكن على عتبة البحر كإحدى حورياته الهاربات، وترسل لهم الهدايا والملابس. كأن الغياب عندنا يُبرّر بالعطايا، لعله اعتذار منا حين لا نكون قادرين على القرب، ولا التواجد إلا بعيدا.

شقيقتي الطيبة لازالت تحافظ على رضا حماتها، تتمسك بتلك الوصايا ذاتها.

- الكل بخير.. قالت أمي.

بعض المال يجعل الكل بخير في نظرها، كما كانت في زمن مضى تحول البيت إلى عيد بعد زيارة أبي، يحمل لنا فيها ملابس وألعاب، ولها ما يكفي في كل مرة لإصلاح جزء من البيت، وملء محفظة نقودها حتى زيارته التالية، فتكون راضية بضعة أشهر ويزول احتجاجها على غيابه الذي تعودته، (غائب لكسب القوت)، لا بأس بشهور غياب أخرى، مادامت الحال تبقى ميسورة حتى عودته، وعمي مسعود يؤمّن الاحتياجات الطارئة.

الحال ميسورة الآن أيضا، ما دامت محفظة نقودها لا تشكو، للغربة أحيانا قلب يحنّ على محفظات النقود. تنهي دوما اتصالها بسلام حار لحكيم، الشاب الطيب الذي وقف معي في الغربة وكان السبب الرئيس فيما أنا عليه من نجاح، وبالتالي سببا في بقاء دفق المال إليها متواصلا.

- أمي تسلم عليك. أقول لحكيم.

يرد عليها السلام مبتسما وهو مطمئن أن هاتفها هو ما بقي يصلني بتلك الكثبان البعيدة، فيما هنا نجاحي وحياة جهد في الحفاظ على راحتي فيها، وسيتمسك أي عاقل بها.

أمي اعتادت الحياة الجديدة، فلم يكن لها ولا لأحد حل آخر. كبُر لها سفيان باكرا ليصبح رجل البيت الجديد، كانت كل الظروف تساعد على ذلك ولعل قامته الطويلة كانت أكبرها. كان مقدرا له أن يكون كبيرا بالمسؤوليات التي انهالت عليه منذ زمن. واكتملت رجولته حين شرع في العمل بورشة النجارة مع زوج صفية وصار يصرف على البيت، ثم إشرافه على رحيلنا وعودته بالعائلة. كانت أمي فخورة به، إذ ملأ عليها فراغ الغياب وأغناها خوف الحاجة.

نجحت أمي مع كل من سفيان وصفية، برمجتهما على أن يكونا مسؤولين كما تقتضي التقاليد، وأن يتحمل كل منهما ثقل الكبر منذ نعومة الأظفار، جعلت من طفلها رجلا ومن ابنتها امرأة مذ كانت تلعب بعرائس الكتان المحشو ذات الشعر الصوفي الملون.

ولم تفشل إلا معي، غير أنها لم تعترف بذلك مطلقا. فلا تستثنيني عندما تفتخر (هذا البطن ينجب النساء والرجال)، لم يكن أبناء بطنها أطفالا يكبرون كل يوم، بل ساروا في رعاية الله ورضاها نساء ورجالا مذ فتحوا عيونهم على الدنيا، سمحت لنفسها أن تمنع رجلها الصغير من البكاء. (أنت راجل والرجال ما يبكوش)

من أخبر أمي أن الرجال لا يبكون؟ من قال أن غدد الدموع حكر على النساء؟ ليست العضلات ولا صحة الجسد ولا حتى مكانة الشخص بين الناس قوة كافية، ولا الرجولة مانعة من البكاء. الرجال كائنات هشة، وأحيانا يكونون أحوج من الأطفال للدموع. لم أر سفيان يبكي أبدا.

ومثل الرجولة كثير من المفاهيم والمعاني والمبادئ تختلف هنا.

***

لم أكن أعرف قبل صالون التجميل المترف أن الرجال أيضا يمكن مناداتهم سوسو، عندما كنت أسمع من بالصالون يتحدثون عنه أو معه، لم يخطر ببالي لحظة أنهم في صدد التواصل مع رجل. وما زاد من اختلاط الأمور عليّ أن أهل عنابة، كما التوانسة، يعكسون التخاطب بين الجنسين، فالرجل عندهم هي، والمرأة هو!

تتناسب معه خطابات الأنوثة، كما تتلاءما لتسمية الناعمة وشكله وهندامه، شعره المنساب على أعلى كتفيه، وسلسلة ذهبية تبرق بين أزرار قميصه اللامع المفتوحة، بشرته المتألقة نضارةً ومشيته الأنيقة، طقطقة حذائه، سروال ضيق وخواتم تزين يديه البارعتين في إبهار النساء. وصوت أرقّ من أن يكون لرجل، كأنما فُصّل هذا الاسم على قياسه تحديدا، فلا أتخيل أن ينادي أحد الصادق أو المختار، فيلتفت ذاك الرجل صاحب صالون التجميل المترف.

تعوّد جميع العاملين معه على أسلوبه وطباعه، بأيّ نبرة هو يمزح وبأيّها يكون جادا كليا، متى يكون حانقا من دون أن يخرج عن لباقته أو يتخلى عن ابتسامته العريضة، وصوته الخفيض.

إنه يحرص كلّ الحرص على مزاج زبوناته الثريات، ويترك النّقاش مع أي موظف مقصود بالنقد أو التصويب إلى خلوة مؤجلة.

صالونه المتلألئ بالأضواء والألوان والموسيقى الراقية يتواجد بمنطقة للفيلات، إنه بمثابة فيلا صغيرة من طابقين، أعيد تصميم غرفها إلى قاعات متناسبة مع صالون تجميل نسائي أنيق ومريح. لم يكن سوسو يحتاج إلى أكثر من بضع سنوات ليصل إلى شهرته هذه، فلا تكاد تخرج عرائس العائلات المخملية مزينة إلا من عنده، إضافة إلى سيدات يبدو عليهن الثراء والبذخ.

هو يقيم علاقة طيبة مع الجميع، يحافظ على ابتسامات غزلان صالونه ورضاهن العجيب بعمله على شكلهن، فهو يحرص على متابعة الموضة وآخر صيحاتها ويتقصى جديد منتجات التجميل وجديد دور الأزياء وأبرز خبراء الجمال العالميين.

لسوسو وموظفيه أسماء تشبه النغمات الموسيقية، ابتداء منه إلى ميمي، ليلي خبيرة الماكياج، زيزي مسؤولة المساج وتنظيف البشرة، فافا والتاتواج، دودو مسؤول المواعيد والاستقبال والذي يفوق الجميع حفاوة ولباقة. عرفت فيما بعد من ميمي أن تلك

الأسماء مقصودة، اختارها رب العمل لسهولة حفظها ولإيحائها الحميمي تسهيلا للتواصل مع الزبونات والقائمين على خدمتهن، فليست زينب الجادة كزيزي الحلوة. للأسماء أيضا اختصاراتها واستعمالاتها الذكية، هذا ما أثبته لي سوسو، حتى أنه إن تعثر باسم لا يصلح للاختصار كاسمي مثلا، فليس من السهل اشتقاق دلع من غالية، لكان ذلك المزين الماهر استورد حروفا أخرى غير حروف اسمي ليصنع لي اسما خفيفا يناسبني، غير أنه لا أحد يفهم كيف التصق به وهو الرجل اسم لا يصلح إلا للنساء.

قبل "روبي" لم يقم احد بمناداتي بغير غالية، كان أقرب الناس إلي يصر على التأكيد عليه، جدتي تناديني (الغالية بنت الغالي)، وحكيم بـ (غاليتي)، ومحرروا رسائل الغرام والغزل وقت المدرسة كانوا يبدؤون بث مشاعرهم بـ (الغالية غالية)، ربما سهلت عليهم جدتي بهذا الاسم تبيان المعزة والمحبة والغلاوة.

***

الساعة تقارب الثانية ظهرا، أنا وحكيم نلتف حول كونطوار الأستوديو بترقب، هاتف محمول بمحاذاة مطفأة زجاجية تزاحمت فيها أعقاب سجائر ملوية العنق.

مسؤول العلاقات العامة بوكالة ألوان قال أنه سيتصل بعد الظهر. وهي وكالة محترمة لها صيت جيد، كان حكيم قد قصدها ضمن وكالات إشهارية أخرى حاملا نسخا عن تلك

الصور التي أخذها لي.

اليوم يأتي الرد. قال حكيم أن التعاقد مع وكالة بهذا الوزن يفتح لي آفاقا كبيرة، شهرة، مال، ومكانة اجتماعية. لم أكن لأستوعب كل ذلك حينها، كان قلبي يخفق بشدة، أجلس صامتة بينما قدمه تنقر الأرض بعصبية. لمعان ساحر بحدقتيه البنيتين، يسحب أنفاسا طويلة من سيجارة بين إصبعيه، تتسارع الحمرة فيها لتخلف رمادا، يمد ذراعه لينفضه ويعيدها إلى شفتيه. وتتسارع الأفكار في رأسي، وأتخيل وجه أمي وسفيان حين يعلمان.

إن نجح الأمر لن أعود معهم إلى إيليزي، سأكون نفسي دون تدخل أو سيطرة أحد، لن يكون عليّ تحمل قهر أن ليس من يحميني. سأبقى هنا.. قلت في نفسي وأنا أستدير بكرسيي العالي من دون مسند ظهر، أحرك نصف جسمي الأعلى نصف دورة، بينما يداي ثابتتان على الكونطوار. نظري يجول بين حكيم وهاتفه المترقب. كان قد قلب اللافتة الحمراء الصغيرة المعلقة على الجانب الداخلي للباب. تقابلني "مفتوح"، الأستوديو مفتوح فقط إلى الداخل. وحدي معه، وحركة المارة لا تهدأ تحت المطر.

أخيرا.. رن الهاتف.

- ألو..... أهلا..... نعم.....
أوكي..... تفاهمنا.

أنهى المكالمة، سحب نفسا أخيرا وضغط نصف السيجارة

المتبقية في المطفأة. تنهّد ونظر إليّ برهة من دون أيّ تعابير على وجهه.

- مبروك. إنهم ينتظروننا صباح الغد لتوقيع العقد.

صرخت فرحا وقفزت في حضنه. أحاط خصري بذراعه دار بي وحط. شعرت أن اللحظة حانت ليتغير كل شيء، لكني لم أكن لأتخيل كم يمكن لهذا التغيير أن يكون جامحا.

كانت لحظة. لحظة واحدة كالتي يتغير فيها العالم، يتحول فيها التاريخ. ألا يحتاج أي من هذا إلى مجرد ثوان!

***

وكالة ألوان للإشهار، لافتة كبيرة عالية بخط أنيق وألوان مدروسة. واجهة زجاجية فخمة ملمعة بعناية، وباب ينفتح تلقائيا حال اقترابك منه، كأنما يحتفي بحضورك ويرحب بك..

ولجت قبل حكيم ذلك الباب لينغلق خلفنا، موظفة استقبال بالغة البشاشة والحفاوة.. بعد اتصال قصير دلّتنا على مكتب السيد رمزي، مسؤول العلاقات العامة. نحن هنا للقائه في موعد للاتفاق النهائي حول بنود العقد. بعد أن كانا قد اتفقا مبدئيا على الشروط، أنا هنا لأتعرف على أشخاص لا أعرفهم وسأكون واحدة من فريق عملهم.. لا أكاد أصدق.

مكتب فاخر بأرائكه الجلدية انسيابية الحواشي، وفاقعة

الحمرة، جدران ناصعة ولوحات معلقة لا أفهم تداخلاتها الغريبة، بأحجام كبيرة وإطارات بسيطة تؤجج كل ذاك البياض.

يستقبلنا السيد الرمزي ويشير لنا بالجلوس فيما ينهي مكالمة مقتضبة. رجل آخر ببدلة رسمية فائقة الأناقة ومحفظة جلدية، يجلس إلى طاولة العمل المستطيلة السوداء وسط قاعة تبدو للاجتماعات، يفصلها عن المكتب بابان يتحدان انغلاقا. يبدو أنه محامي الوكالة يبسط أمامه مجموعات مرتبة من الأوراق. ويبتسم.

- Mademoiselle روبي، Monsieur حكيم، أهلا ومرحبا بيكم..

- واش تشربو؟

- مرحبا بيك Monsieur رمزي. يعيشك، ما نشربو والو. Merci

أومئ موافقة على ما قال حكيم، وأحاول إخفاء ارتباكي. فيما يجول نظري في كل تلك الأبهة والأناقة المبهرة. حتى السيد رمزي، لم يكن كما توقعت، على العكس، كان شابا جدا ووسيما كذلك، يضع نظارات رفيعة الذراعين، يزيد بريق زجاجها من اتقاد الذكاء في عينيه المستديرتين. وأسنان كأنها العسكر في اصطفافها وانتظامها، تحرص ابتسامته على إظهارها بين كل مجاملة وأخرى.

يتحادثان وأصغي، يُعرّفنا إلى الرجل الجالس منذ دخولنا

أمـام أوراقـه المرتبـة التـي تنتظرنـي، عـدة أوراق وبضعـة تواقيـع ومصافحـات باسـمة، لأولـد. مـرة أخـرى.. امـرأة جديـدة، لا أكـاد أتعـرف إليهـا.. إنهـا "روبـي".

عالـم جديـد، مهنـة جديـدة، تحتـاج إلـى تسـمية خاصـة. اختـار لـي حكيـم هـذا الاسـم لأنـي جوهرتـه الغاليـة، كمـا قـال.

خطـوت خـارج ذاك المـكان مبهـورة تمامـا. لا أكـاد أسـتوعب، حاملـة بيـدي شـهادة ميـلاد امـرأة كانـت تحـدق إلـيّ بعينـي قطـة تلمعـان انتصـارا فـي مـرآة المصعـد، إنـه وجهـي.. لكنـي لـم أعـد أنـا مـن حينهـا.

يبـدو أن ذراع حكيـم التـي كنـت أتأبطهـا وحدهـا تـدرك إلـى أيـن نمضـي. أمـا أنـا فاكتفيـت بإتباعهـا استسـلاما لنشـوة غامضـة.

ناولنـي ذلـك المحامـي قلمـا وظـل يشـير إلـى مسـاحات إمضائـي تحـت عـدة أسـطر عبـر الصفحـات. بعدهـا تسـلمت نسـخة، بقيـت أحضنهـا طـوال الليـل، وأنـا أفكـر.. دخلـت غاليـة وخرجـت روبـي.

لـم أختبـر مـن قبـل إحساسـا كهـذا، لا شـيء يشـبه وثيقـة رسـمية تثبـت وجـودك، توقيـع صريـح يقـرّ ميـلادك الجديـد. لـم أعـد غاليـة مرونـي، الفتـاة مـن إيليـزي السـمراء ذات العيـون الملونـة، أصبحـت روبـي نجمـة الإعلانـات.

كان قـد حـان الوقـت ليعـرف سـفيان وأمـه أنـي لـم أعـد لعبـة ذات خيـوط تحـرك مـن أعلـى. لـم يكونـا ليتخيـلا أن كـل مـا يربطنـي بهـم قـد قطـع خيطـا إثـر آخـر.

ولولا حنين قديم وأغراض من زمن بعيد، لكنت قد محوت عنوة، محوت تماما كل ذاكرة قد تتسبب في إرجاعي إلى هناك، حيث لن يكون أبدا فرق بيني وبين صفية إلا في عدد الأولاد.

لا أحب أن أكون نسِخة مكررة، أفضل أن أكون أكبر فاشلة في العائلة، لقب أسرّ بالحفاظ عليه وإثباته لهم كل يوم بطريقة جديدة.

ليس عليّ أن أسعى إلى إيجاد طبيب أسنان شاطر يصنع لي فراغا بسيطا بين سني الأماميين ليلازمني الحظ، وأسابق الجيران في جلب الأطفال إلى الدنيا، أطفال أسبقهم وأصفق حظوظهم في أن يكونوا مختلفين، وأصمم مخططات حياتهم الجاهزة سلفا.

كان قد حان الوقت ليحزم أهلي أمتعتهم ويخلفوني وراءهم.

لن أذهب إلى أي مكان. هذا عقد عملي هنا، وهنا سأبقى. قلت لسفيان وأنا أشهر نسخة من العقد في وجهه.

اختطف الورق من يدي حانقا لا يكاد يستوعب. لم أخف الشرر المتّقد في عينيه لحظتها وهو يقرأ ويقلب الصفحات، شعرت أنه يرغب في مد يده ليتناول خيشة قديمة يغمرني بها ويرميني بعيدا. لكنه يعرف يقينا أن القطط ليست متشابهة.

استدار فجأة واستدارت ذراعه معه ليوقع ختم مباركته لي بصفعة من كفه العريض.

لم يرض من قبل بخروجي إلى العمل، لكن الحاجة وفرت عليّ عناء الإصرار والعناد. كان عليّ الصبر لبعض الوقت لتتولى أمي مهمة فتح الباب لي وتوفير مرافق هو الحاجّة خديجة جارتنا الجديدة قريبة حكيم التي أوصت بي لديه، وضمنت أن سوءً لن يصيبني ما دمت سأقصد ذاك الأستوديو حيث أكسب ما يكفي من مال لأسد به فم سفيان المحتج. لعل احتجاجه بهت وهو يقبض شيكاتي الآن، الشيكات ساعدت أمي في تقرير أنه حان الوقت ليأتي أحفادها هي الأخرى إلى الدنيا. وهذا ما حدث، اختارت فتاة مكتملة الجاهزية لتكون كنّة جيدة وزوّجته إيّاها.

الزمن يتكفل بفك جميع العقد، وشفاء تورم الأيدي التي تصفع. زمن طويل مضى على الأغراض التي حُزمت عائدة إلى إيليزي، حيرة أمي والعودة من دوني، وثورة ابنها إثر فشله في لجمي. كنت أشاهد كل ذلك لحظة وقوعي وأنا ألُمُّ أوراق عقدي الموقعة بانتقام قطة لصغارها، وساعات وقوفي في مطبخ أمي تحت نظراتها غير الراضية. كل ذلك البرد الذي عصف بأعماقي بين الرمال الملتهبة، نكاية في كل الخيبات سأبقى هنا. فليس لدى كل العائلة مجتمعة عشر المبلغ الجزائي الذي وقعت موافقة على تسديده لوكالة الإعلان في حال فسخت العقد.

الطريق الذي أوى هربنا من كل تلك الأقاويل والإشاعات والأخطار المحتملة المحدقة بنا في حال بقائنا في إيليزي، جراء سجن أبي في ليبيا، سواء كان ذلك من طرف الجماعات

المسلحة كما قيل لنا في البداية، أو في السجون النظامية الليبية التي نادرا ما يعود منها أحد بعد تهمة كتهريب السلاح. الحقائب المخططة ذاتها التي حملت لنا الأفراح والمباهج في طفولتنا، كانت ذاتها من حملت قطعا للموت كان صداها كفيلا بالتردد عبر الصحراء الشاسعة، ليثير زوبعة رملية دوارة، لا أحد يستطيع تحديد مصدرها، لتشتتنا.

وعادت الأكياس، تلك المخططة، لتُرصّ خوفا إلى هنا حيث تركتني لتعود أدراجها ثانية. من كان يحملها رحل من دون رجعة. مات أبي ولا أحد يدري كيف، ولا كيف كانت لحظاته الأخيرة. ما أقسى اللحظات الأخيرة، تحفر عميقا في القلب لتُخلّف ثقوبا في الذاكرة، لقد كان مثلي يكره الوداع، ولا يحب الدموع، لذا فضل أن يرحل صامتا. لا وصايا ولا وداع ولا ثقوب.

لا عطور تعلق بالأماكن، ولا صور للنهاية. لا شيء أبدا سوى خبر يقين هذه المرة عبر هاتف من عمي مسعود، أبي رسميا صار يدعى المرحوم. لا تفاصيل، لا أحد يدري ما الذي أحزنه أكثر، من الذي اشتاق ضمّه ومن تمنى أن يوصي عليه بشدة.

أتخيل أنه رغب بعناق جماعي كما في رجعاته الليلية في طفولتنا، حين نركض تلقائيا إلى ذراعيه المفتوحتين الكافيتين للجميع. لابد أن مجال الحضن يتسع بحجم الشوق ليحوي خمسة أبناء دفعة واحدة وجدّة، فيما تنتظر أمي دورها خلف باب مغلق.

والأكيد أن حضن أبي الأخير كان كافيا لوطن.

كان ليوصي بأمه التي ماتت كمدا قبل أن تراه، وبالبنات خصوصا قطته الصغيرة التي لم تعد تموء بعده. يوصينا بأمنا. يوصي الجميع بالجميع، ويخص العائلة بآخر الكلمات، أن نبقيها متحدة صامدة في وجه الزمن.

آسفة يا أبي. لم تعد الأمور كما تركتها، ولا كما أردتها.

أفكر أن أبي أكثر شجاعة من أن يخاف الموت، لأن الموت ليس ما يجب أن نخافه كما كان يقول، بل مدى جاهزيتنا للقاء الله.

لا أعرف إن غادر جاهزا، أم أن بعض الأكياس المخططة وألغازها كانت قد غيرت منطقه مثلما غيرت وجهة سفيان وحملت به من جديد إلى البيت. أبي مات في سجون ليبيا يقينا، لم يتبقّ من داع لمكوثنا هنا بعد الآن، الأمن المحلّي غير معني بقضيّته ولن يضطر سفيان للهرب من احتمالات تبعات ما حصل مع أبيه. انتهى كل شيء بعيدا، هناك خلف الحدود.

وبقيت، تخلّى لي حكيم عن الشقة التي كان يسكنها إلى سكن آخر، الآن أنا روبي التي تملك ما يكفي من المال لتأمين سكن منفرد خاص بها، استأجرت الشقة وسددت إيجار سنة كاملة سلفا. لم أكن يوما أكثر حريّة ولا قوّة من هذا. لم أتعوّد السكن بمفردي، وصديقي اللحوح لا يأمن عليّ من الوحدة فقد اقترح أن تشاركني ميمي البيت، فتاة يعرفها وأعرفها من صالون التجميل، صديقته منذ زمن بعيد. سأحظى

برفيقة سكن ومصففة شعر منزلية. وشخص ماهر ومتوافر ليعلمني أغلب ما أحتاج إليه لدخول دنيا المظاهر والمجاملات، أكعاب أحذية خيالية العلوّ بالنسبة لفتاة تهوى السير على رمل دافئ، وملابس تخصّ كل مناسبة وخرجة بلون وصنف يتناسب معها.

احتجت إلى تغيير عاداتي من جلستي التلقائية التي لا تحتاج أكثر من قعود مباشر على حصيرة بالأرض إلى جلسة على كرسي حيث عنقي منتصب باستقامة مع ظهري، وساقاي تتقاطعان حيث يُقرر عنهما الايتيكيت، شوكة تغازل سكينا على لقيمات بصحن مسطح بطاولة للأكل، لا يصحّ في حضرتها إلاّ أدب من نوع جديد عليّ. ميمي كانت قد اختبرت كل ذلك وتعرف كيف تتدبّر أمورها جيدا. كما تحترف العناية وتدليل الأنوثة بكل ما يتوافر في الأسواق.

وبما أنها كذلك تبحث عن سكن بعدما غادرت بيتها القديم منذ فترة، وتمكث عند إحدى معارفها، سيكون مناسبا لها أيضا العيش معي. الأمور كلّها مرتبة، هكذا سينام صديقي قرير العين دونما خوف عليّ.

***

نشأت بيني وبين ميمي علاقة ألفة وثيقة، وكنا نتصرف كأنّه لن يأتي يوم تسير فيه إحدانا في طريق حيث لن تتواجد الأخرى.

في إحدى المساءات كانت ميمي بالمطبخ تجهز لنا ما نتناوله عشاء، مما لا يتطلب وقتا أو جهدا وتضن به على المطبخ، فأكون على يقين، إن هي بادرت بتحضير الأكل، أن سُفرة اليوم لن تتجاوز بعض الوجبات نصف الجاهزة في المتاجر، كالبيتزا التي لا تحتاج أكثر من سكب صلصتها من العبوة مباشرة على العجينة المحضرة سلفا، وإلى الفرن الكهربائي. بضع دقائق ويعلو صوت ميمي بإعلان خروجها للبهو وبيدها طبق البيتزا الساخنة، وقد نثرت عليها ما شاءت من منكهات تحب مذاقاتها متداخلة في لقمة واحدة؛ الزيتون الأخضر والأسود، المايونيز، أنواع الأجبان المتوافرة، الفطر، التونة، بعض المخللات وخطوط متقطعة من الهريسة الحارة. ترغب بها هكذا "بيتزا مخلطة". لا تحب تصنيف الأشياء ولا التفكير بمسمياته، ولا تقنع بتخصيص تلك العجينة المستديرة القابلة لكل النكهات بمجرد جبن وبعض فتات من التونة أو اللحم. وتفضل أن تفاجئها كل لقمة بتمازجات مختلفة من المذاقات.

خرجت ميمي إلى البهو ووضعت الطبق على الطاولة حيث جلست قبالة الحاسوب النقال، كنت قد فتحت صفحة على برنامج الرسام، كنت أستمتع بالأشكال المتداخلة التي أستطيع رسمها وتلوينها كما يهوى مزاجي بعدة نقرات على فأرة الحاسوب، أذكر طفولتي الأولى، يوم كنت أقضي مساءاتي مع علبة ألوان خشبية، أرسم أشكالا مشابهة وألونها، أو أرسم أشجارا وطيورا، وسماء تتفتح فيها الشمس أبدا أعلى الزاوية اليمنى لأوراقي، وزهورا ملونة على سفوح هضبات مموجة، أو أرسم وجوها ملثمة، أستحضر فيها الأبوة الأجمل رغم غيابها

الطويل. مازال الوجه ذو اللثام الأزرق يتسلل إلى رسوماتي الإلكترونية كذلك كما لأحلامي، فأدعو له بالسلام الأبدي.

أرسم قلوبا متفاوتة الأحجام بعضها ملون، والقلب الأوسط والأكبر حجما كان أحمر، كتبت عليه (نحبك ميمي)، وكانت هي قد قصدت المطبخ هذه المرة لإحضار الأكواب والماء والعصير وبعض المناديل الورقية، ولأنها كانت هادئة اليوم على غير عادتها أردت أن أشاكسها، فور خروجها من جديد أدرت تجاهها شاشة الحاسوب وبها صفحة القلوب. وما إن وضعت ما كان بيدها على طاولة الطعام، رفعت بصرها إلى ما أردت أن أريها. توقفت برهة، نظرت إلي وارتمت في حضني باكية.

كالأطفال حين يفركون عيونهم بأكُف أيديهم معا، كانت تمسح دموعها، أمام دهشتي من ردة فعلها تجاه كلمة صغيرة على شاشة حاسوب.

في زمن نحتاج فيه كلمة حب صادقة، لا يعود مكان كتابتها ولا طريقة التفوه بها ولا حتى توقيتها مهما، لا تحتاج المشاعر الحقيقية إلى بروتوكولات لتصل، لا تحتاج وسائط. تجد طريقها في زخم الحياة وفوضى الزيف والأكاذيب كسهم مصوب إلى دائرة صغرى وسط دوائر أكبر نحو القلب.

لم تكن ميمي ينقصها إلّا كلمة (نحبك) لتنسكب بكاء.

أنا هنا أيتها الطفلة الكبيرة، هنا بجانبك، أسدل ستارا ثقيلا من الأنس يفصلك عن همومك.

أنا هنا فابكي. لا يجوز كبت الدموع، ابكي وكوني بخير.

من فرط فوضاها، لا أطمئن على ميمي إن حدث يوما أن هدأت أو ركنت إلى السكون، هذا أشبه بعوارض مرضية لديها بالنسبة إلي، فلا أنفك أنظر إليها أتقصى أي علامات أخرى محاولة فهم ما تفكر فيه، أو إن كانت تحتاج إلي. في حالات كهذه يحدث أن ترفع صوت الموسيقى الصاخبة وتقوم بحملة نظافة لغرفتها أو للبيت، تضع محتوى خزانتها أرضا لتعيد ترتيبها، أو تعيد تجريب ثيابها قطعة قطعة. تجلس قبالة مرآتها تبذر ما في علب ماكياجها على وجهها وتمسحه بمنديل مبلل، وتعاود تبرجها من أوله مرة بعد أخرى، وفي كل مرة تصل إلى آخر اللمسات، تسحب الدرج حيث آلة التصوير الرقمية، فتأخذ بها صورا لنفسها وهي تمد شفتيها كمن يجهز قبلة، تضحك، تغمز، أو تغير نظراتها وتعابير وجهها بشتى الحالات المزاجية، ثم تعود تراجع الصور فتمحو بعضها وتحتفظ بأخرى.

سألتها مرة (لم يحتفل الناس بعيد الميلاد؟)

فأجابت: لا أعرف لم يفعلون هم، ولا يهمني ما يعتقدون فأي مناسبة تستحق الاحتفال لدي. أنا أستحق الفرح.

كانت تحتفل لمجرد استيقاظها من النوم، سعيدة بعودتها إلى الحياة، أليس النوم موتا مؤقتا؟ كم من الأموات يتمنون لو يعودون ليملؤوا الدنيا بهجة وألعابا نارية. وهي تعود من جديد.

يكفي أن تتواجد ميمي بالبيت لتعم فوضى جميلة فيه، لتلك المرأة طاقة أحسدها عليها، وعيد دائم لكأن قلبها في كل

أوقاته سعيد سعادة لم تعكرها أبدا أية شائبة.

لست بارعة في البقاء وحدي، فأنا لا أحسن التعامل مع الوحدة. كنت عندما أتعب وتداهمني نوبات ما قبل الحزن، أطلب من ميمي الخروج للاحتفال، وهي المتأهبة دوما، تثير تلك الكلمة كامل حواسها دفعة واحدة، من أجل الاحتفال والسهر والمرح تؤجل خرجاتها، مواعيدها التزاماتها المعلنة منها والخفية، حتى أنها تؤجل مرضها، وتفاجئني باستعدادها السريع (راني واجدة). وهل حدث يوما أن كنت غير جاهزة للفرح.

في السهرات غير الرسمية، نبحث أنا وميمي عن أماكن جديدة تماما لم نزرها من قبل، حيث لا أحاديث عن العمل، لا وجوه مألوفة من النهار، ولا إيتيكيت ولا حوارات متوقعة. لا أريد سهرات كالتي أظهر فيها "روبي" الوجه الإعلاني الشهير، حيث الجميع يتملق الجميع، أشعر بضيق في التنفس في مثل هكذا تجمعات. أفضّل أماكن لا يهتم مرتادوها بمن يكون الآخرون، بعملهم أو شهرتهم أو مكانتهم، بل بأنهم يستمتعون، يهربون من تعب وهرَج النهار إلى جنون الضوضاء، ومتعة الرقص، أما أنا فأفضّل أماكن أكثر هدوءً، كالمطاعم أو السّير على الشواطئ الرملية حافية القدمين. في مثل هاته الخرجات لابد من وجود حكيم، فهو لا يأمن عليّ من الليل ولا من جنون ميمي، ولا أنا واتتني الجرأة أن أغادر البيت من دون أن يكون له علم أين أذهب ومع من وإلى متى سأبقى خارجا. ولابد من هاتف ليلي يطمئن فيه إلى أني هانئة في فراشي الدافئ في انتظار انزلاقي إلى النوم.

بعد كل تلك العشرة، صار حكيم يحفظ عن ظهر قلب مزاجاتي وكل نبرات صوتي ومدلولاتها أيا كانت صغيرة أو كبيرة، كل ما أحب ومتى أشعر بالنعاس، متى تتسع حدقتاي دهشة وكيف أحب قهوتي. يعرف من ضحكتي إن كانت تلقائية من القلب أم أنها مجرد شكل آخر للبكاء.

يعرفني ذلك الرجل. يخيفني كم يفهمني ويحفظ تفاصيلي أكثر من المرآة. يعرف كيف يتعامل مع المرأتين فيّ، غالية وروبي، دون أن يخشى أو يخطر على احتياطاته أن أيّا منهما ستخرج عن سيطرته.

***

لم أكن أحتاج ذكاء كبيرا لأستشعر قرب الأشخاص من عدمه عبر صورهم، فوجه يحبك لا يعبس في حضورك، وعينان تعشقانك لا يخبو بريقهما وملامحك ترتسم عليهما. كنت أرى ما قد لا يراه أولئك الناس الذين لا أعرفهم في أنفسهم، ذلك أني كنت أستنطق الصمت فيهم، فأجد البسمات المرسومة زيفا لعدسة كاميرا، الأذرع المنطوية المخبأة في الجيوب والهاربة من كتف مجاور، أبلغ تعبيرا من اعتراف. فقد لا يدرك صاحبها ما تقول عنه ابتسامة جهد في الحفاظ عليها حتى يبرق ضوء الفلاش.

وهذا كان حال ميمي وحبيبها الجديد، وقد جاءت معه لتعرّفني عليه، كما لأطبع لها صورا التقطاها في عطلة نهاية الأسبوع قضياها في تونس، كنت أنظر إليهما أشاهد مَيلان

كلها إليه بينما يقف هو باتجاهي، ونظرته تقطر خُبثا وغرورا، انبهارَها المفضوح به وصمتَ ملامحه إليها.

قلت لميمي أنها ستجد الصور جاهزة مساء حين تعود للبيت، لكنها قالت أنها ستعود غدا إلى الأستوديو لأنها لن تبيت معي الليلة؛ كانت تتحدث إليه بحماس شديد، وكنت أفكر وأنا أشاهد بعضا من صورهما المتعاقبة على شاشة الحاسوب، لم يكن ممكنا أن تدرك أنه يبدو غير مهتم لها، هي التي لم تكن ترى سواه كما تبيّن لي بعدها. ما كان يوما ليخطر ببالي أن امرأة مثلها قادرة على أن تفتح قلبها للحب، أن تؤخذ به، أن يلغى في ذهنها ووعيها كل الكلام عدا كلمة واحدة.. أحبك، سواء كانت هذه الكلمة تقصد أحبك أو أشتهيك أو أحب انخطافك بي، أو أنها مجرد كذبة متفق عليها ترصيعا لنزوة عابرة. لا فرق ما دمنا نرغب بسماعها، بتصديقها والسّير مُنومين خلف ما تأخذنا إليه حتى لو كان هاوية نُترك وحدنا سائرين إليها من دون فرامل.

ولم يكن ممكنا أن أخبرها أنا ذلك، لأنها لم تكن قادرة على سماعي ولا سماع إلا ما يملأ به قلبها الفراغات التي يتركها لها هذا الرجل بين صمت وآخر. كما يحدث عندما نصدق ما نرغب في وجوده ونعجز عن إدراك ما هو أمامنا ولا نراه.

عادا معا في الغد لأخذ الصور، لكنه رجع بعدها وحده، عندما عرف أن حكيم في المحل، تحجج بتكبير صورة له كانت معه تحسبا، عاملته بأقل برود ممكن تفاديا لإظهار

تقززي منه، كان يرتدي طقما رماديا فخما، وتتدلى على صدره ربطة عنق أنيقة بلون البحر الليلي، تعلو وجهه نظرة استعلاء واضحة، بيسراه خاتم ثقيل يعلوه حجر أحمر. تربكني نظرته الشرهة، وأكره نظرته المتعالية تلك كما نبرته الآمرة. لا أفهم ما الذي أعجبها فيه تلك المسكينة، ما الذي رأته مبهرا لدرجة كادت تفقدها صوابها، أهو سحر المال، هي التي عشقت دوما البهرجة والرنين الأصفر.

- لك أن تعود بعد ساعتين، ستكون الصورة جاهزة.

- سأعود، لأجل تينك العينين سأعود. رد عليّ بوقاحة، وانفتح ثغره عن صف أسنان يلمع بينها ناب فضي.

وضع على الصورة ورقتين نقديتين تعادلان أضعاف ثمن تكبير الصورة، وانطلق خارجا قبل أن أنطق بكلمة. ركب سيارته المرسيدس الحالكة، ورحل. تركني لغيضي، ماذا يظن نفسه ذاك الرجل باذخ الوقاحة والغرور. كيف يجرؤ.

- ما بك؟

- لا شيء، لا شيء أبدا. وأخفيت الصورة عن حكيم الذي فاجأني بخروجه تلك اللحظة من حجرة التصوير. فأنا أعرف أنه لا يحب أيضا ذاك الرجل.

عملت على تكبير الصورة الغبية ووضعتها في إطار خشبي أنيق، وأحكمت تغليفها بعد أن ألصقت عليها ظرفا صغيرا، أودعت فيه انتقامي؛ ورقتاه النقديتان وعبارة على ملصق صغير(هدية من المحل).

حكيم، هذا الإطار للسيد سليم، سيمرّ لأخذه مساء.

السيد سليم عبد الإله، واحد من أصحاب الملايين المعروفين، يملك محلات جزارة تمتد عبر عدة وولايات غرب البلاد. هذا ما عرفته من ميمي تلك الليلة، بعد أن كنت قد تركت له إطاره بنقوده وقررت ألا أقصد الأستوديو مساء، انتقاما من عنجهيته الوقحة. كم أشعر بالاشمئزاز حين يعاود وجهه استفزازي (لأجل هاتين العينين سأعود)

- تعرفين يا غالية ذلك الفارس الذي يأتي على حصان أبيض كما في الأحلام، لقد جاء إليّ. لكن بفرق بسيط، استبدل الجواد بالمرسيدس.

لم يعد هناك فرسان يخرجون من الأحلام يا صديقتي، اصحي. قلت في سري متنهدة.

- بل إنه أجمل مما حلمت يوما.

بل ليس سوى أحد بارونات المال الذين يسعدون باصطياد الساذجات.

- سينتشلني من هذه العيشة، يا إلهي، أتتخيلين؟

لم أستطع النوم ليلتها، وأنا أقلب حديثهما، وجهه يثير أعصابي، نابه الفضي ذاك.

ربطت ظهوره في حياة ميمي بظهور السيارة المفاجئ، بدا هذا أكثر تفسير منطقي ممكن، لكني مع ذلك أستغرب كيف تستطيع تحملّه، إنه على الأقل يكبرها بخمسة عشر سنة إن لم يكن أكثر، وأفظع من ذلك لا يمكن لأي عاقل أن يدخل مع هذا الشخص المريب المتعجرف في أي علاقة جادة مهما كان نوعها. إضافة إلى كل ذلك وقاحته وكلامه ونظراته المقززة لي، وماله الذي يحسب أنه يكفي لشراء الجميع. لا أستطيع أن أفتح هذا الموضوع مع حكيم، سيعتبره إهانة شخصية لأن السيد السليم تحرش بي بكل وقاحة في حضوره تقريبا وفي عرينه وأنا لم أستطع فتح فمي بكلمة.

كيف أُفهم ميمي ذلك! ليس لدي أدنى فكرة.

قضيت ليلتي تلك على أمل واحد، أن يحدث أمر ما لا أدري كيف، لكنه يجعل ميمي تصحو وتُنظف حياتنا من ذلك الوسخ. لا تريد أن تعي أن زوار جسدها لا يهتمون بالطبقات الجوفية لقلبها، ولا يدركون إلا ما ترغب فيه شهواتهم وتقوى جيوبهم على دفع ثمنه.

أتى الغد، وصباحات تالية لكن الحال كانت تزداد تعقيدا. ذلك الرجل عاد أكثر من مرة للأستوديو وعرض عليّ أخيرا الخروج معه، لكنه لم ينتظر أن أصحو من صدمتي وترك لي بطاقة لهواتفه، ثم خرج بالطريقة نفسها. لم أعد أقوى على

احتماله وقررت أني اليوم ومن دون شك سأواجه ميمي، وفي وجهها مباشرة سأخبرها بما حدث وأضع حدا لهذا الصداع وأنتهي.

منحت نفسي باقي اليوم إجازة، أخبرت حكيم أني متعبة وأرغب في العودة إلى البيت، لم يمانع طبعا غير أنه أبدى قلقه عليّ واقترح توصيلي، أقنعته أن الأمر لا يستدعي القلق، سأنام وأكون بخير، وسأتصل به حالما أستيقظ.

لكن باقي اليوم كان عطلة إلا من الشوك الذي تقلّبت عليه في انتظار عودتها من العمل، وعندما جاء المساء أخيرا، اتصلت لتخبرني أنها لن تعود الليلة، وفهمت فورا أنها معه. يالها من فوضى، هنا قررت أني لن أتراجع وسأصفع ميمي إن لزم الأمر لتصحو من غيبوبتها، وتعرف مع من أوقعها غباؤها. ولها الحرية في القرار بعدها، لكنها ستختار بين هذا البيت وذاك الرجل. فلا يمكنها بعد الآن بأي حال أن تحتفظ بكليهما.

نسيت أن أتصل بحكيم، لذا اتصل هو ليطمئن، قال أن صوتي يبدو متعبا، وأنه يفضل أن أرتاح غدا أيضا. لم أعرف ما أردّ، لكني تمنيت أن يأتي الصباح بالخير. لكنه لم يفعل وبقيت طوال الأسبوع التالي ألعن اليوم الذي دخلت فيه ميمي إليّ تتأبط ذراع حبيبها الجديد فخورة سعيدة. من أيّ قمامة تحصل على هكذا أشخاص، وأي غباء لا يسمح لها أن ترى ما يراه العميان. وطبعا كنت أجبن كل مرة على فتح الموضوع معها، لا أدري من أين أبدأ ولا كيف أصوغ جملة تقول: ميمي، حبيبك الذي تعشقين يتحرش بي، لذا عليك أن تعرفي أنه لا

يستحقك. وعليك أن تتركيه فورا. وإن كنت مجنونة وحمقاء بما يكفي للتمسك به، فأخرجيه من حياتي كما أدخلته إليها. أو اخرجا منها معا.

بأي وجه سأقول لها هذا؟ كيف ستواجه كلامي؟ هل ستصحو على نفسها أخيرا وتنهي كل هاته التساؤلات التي لا أجد لها جوابا؟

استجمعت كل جرأتي، بل كنت أستجمعها منذ فترة، فحصلت على ما يكفي منها لأقرر أني اليوم سأفعل التالي: أطلب من ميمي أن تصغي إلي، أو لا أفعل. سأقول لها كل ما أريدها أن تسمع مني دفعة واحدة وينتهي الأمر، ولن أكتبه كما خطر لي أكثر من مرة. لكنها لم تعد في الغد أيضا.

زاد توتري، وحارت سبُلي في ذلك الوغد الوقح الذي صار يتردد على الأماكن التي أقصدها وإلى مواقع التصوير غير أنه يبقى بعيدا يرقبني بينما يأتي حكيم دائما ليُقلني. يترصّدني في النهار، بينما يبيت ليله معها.

كنت على أريكة الصالون، أستلقي ونظري إلى التلفاز، بينما دق جرس الباب. إنه حكيم فقد اتصل عدة مِرات بينما كنت آخذ حماما، لابد أنه جاء بنفسه ليرى أنني لم أختطف أو أرحل إلى كوكب آخر. وفتحت.

لم يكن حكيم، بل ذلك الكابوس.

- ميمي ليست هنا. قلت بارتباك ظاهر.

- مساء الخير أولا، أتتركين ضيوفك على الباب؟

لم يكن ينتظر دعوتي ليدفق إلى البهو، يضع أكياس هداياه فوق المائدة، يجلس مبتسما. ويضيف

ثم أني هنا من أجلك أنت لا من أجلها.

- سيد سليم، رجاء. لا تدعني أقلّل من احترامك فأنت في بيتي، ميمي ليست هنا ولا يمكنني استقبالك. عذرا، لكن لا يمكننك البقاء.

- عزيزتي، لا تتوتري هكذا. ميمي تعرف أننا لسنا على علاقة جادة، ثم أني لمّا رأيتك أول مرة أدركت مباشرة أني أريدك أنت. (يتكلم ويقترب مني، ويمد ذراعه إلى الباب ينوي إغلاقه)

- لا أريد أن أسمع شيئا، غادر الآن من فضلك. أنا لا أريدك، ولا أريد منك شيئا إلا أن تذهب فورا.

- روبي، لا تتدلّلي عليّ أكثر، انتظرت هذه اللحظة طويلا، أنظري ما أحضرت. اقتنيت هذا السوار خصيصا لك. ويفتح الأكياس بحثا عن سواره الغبي، بينما أتمسّك بمقبض الباب المفتوح ويشتد غضبي وتوتري.

- إن لم تخرج الآن سأتصل بالشرطة. صرخت به وشعرت لحظتها برجفة في يديّ ونفسي يتأجج غيضا.

لا يسمع إلا نفسه، ولا يصغي إلا لشهواته المريضة. يدفع الباب عنوة لإغلاقه وذراعه الأخرى تخاصرني سحبا إليه محاولا تقبيلي، أفلت الباب ولا أشعر إلا ويدي ترتخي فتصفق وجهه.

يجمد كلانا برهة من الزمن، تلتقي نظراتنا المصدومة ولا نسمع سوى صدى الصفعة.

- لا تعرفين مع من تعبثين، أنا سليم عبد الإله. لا أحد يجرؤ أن يصدّ سي سليم. ستعضّين أصابعك ندما. غبيّة.

وأخيرا يخرج. أغلق الباب خلفه وأنهار أرضا ورأسي بين يديّ. (يا إلهي)، خطر لي أن أتصل بحكيم مباشرة وأحكي له ما حدث. لا زالت يداي ترجفان، وأفكّر أني لا أتحمّل أن يتورّط حكيم مع شخص كهذا، فأحجم عن الاتصال.

أبقى على الأرض أسند إليه ظهري كأنما أُحصّن إغلاقه، أو لعلّي بقيت تتجاذبني الأفكار التي لم أكن أرسو على إحداها لتتجدني من حيرتي، وتغريني بتبريد نار الغيظ التي باتت تكوي ضلوعي. ثم نهضت، حملت كل تلك الأكياس غير آبهة بما فيها وألقيتها في سلة الفضلات بالمطبخ، وقصدت غرفتي، قضيت باقي الليل متكورة في فراشي أنظر إلى الهاتف تارة، وأخرى أحمله، أضبطه على رقم حكيم ومرة

ميمي، ثم أتراجع، أضعه على المخدة وأظل أرقبه. حتى جاء الصباح، وجاءت ميمي تحاول دخول البيت لكن مفتاحها لا يكفي، إذ كنت قد حصّنت إغلاق الباب من الداخل، تديره بعصبيّة عدّة مرات ثم ترن الجرس.

- ما بك، لم كل هذا، ألا يكفيك المفتاح؟ قالت بغضب ظاهر، كأنما تبحث عمن تفرغ عليه غيضها أيضا.

- صباح الخير. قلت وأنا أشير لها بالدخول.

عدت إلى غرفتي لا أنفكّ أفكّر وأدور حول نفسي، وصداع شديد يلتهم أعصابي. بينما يبدو أن ميمي وضعت أغراضها وقصدت المطبخ لتحضير قهوة تحاول بها تجليس رأسها وتُطير دوخته كما تقول، بالمطبخ وجدت أكياس حبيبها المحشوة في السلّة. لا أتخيّل إحساسها تلك اللحظة وهي تفتح الهدايا وترى البطاقة التي لم أكن قد انتبهت لها قبلا (إلى الجوهرة روبي.. مع حبي. سليم).

لم أُفق مما كنت فيه إلا على صفق قوي في غرفتها. ثم غادرت البيت وبيدها حقيبة، لم أفهم ما حدث، غير أني عندما دخلت غرفتها وجدت أنها قد أفرغت بعض ما بخزانتها عشوائيا في تلك الحقيبة. زادت حيرتي، وتذكرت فجأة تلك الأكياس اللعينة. سارعت إلى المطبخ، حيث كانت الأكياس مبعثرة على الأرض ولمحت البطاقة.

آه يا الهي. خرجت تلك الغبية دون أن تسألني أو تمنحني فرصة

الـكلام عمـا حـدث، هـذا ليـس عـادلا أبـدا. لا تـردّ علـى الهاتـف كذلـك، ولا حكـيـم أيضـا حتـى بعـد عـدة محـاولات، قـدّرت أنـه منهمـك فـي العمـل فـي هـذه السـاعة مـع زبائنـه، وهـو يضـع هاتفـه علـى الصامـت. سـيعيد الاتصـال بـي بالتأكـيد، لـكـن نفـاد صبـري لا يسـعفني.

- روبـي، أنـت بخيـر؟ يسـأل حـكـيـم فـي اتصالـه الـذي بـدا أنـه تأخـر أعوامـا.

- بخير بخير، يجب أن أراك.

- أخبرينـي مـا بـك. أنـا مشـغول جـدا بالعمـل، هـل مـن خطـب؟

- لا بأس، سـأراك مساء، ونتحدث. لا تقلق.

أنهيت المكالمة محاولة ألّا يبدو عليّ شيء من الغضب الذي يتملكني، وأتصل بميمي.

- ألو ميمي، أين أنت؟

- أيـن أنـا؟ لـم تهتميـن؟ أنـا بجهنـم. لـو أخبرتنـي مـن البدايـة أنـك تريدينـه للففتـه لـك بـورق هدايـا وسـلّمتك إيـاه.

ميمي.....

- لـم أتوقـع أبدا تصرفـا كـهذا منـك. لـو أخبرنـي

أي شخص أنك ستفعلين هذا بي لمَا كنت صدّقته. يا خسارة العشرة يا "روبي".

- ميمي رجاء اسمعيني.

- .....

حاولت إعادة الاتصال مرات عدة، لكنها اختنقت بدمعها ومرارة خيبتها ولم تردّ.

غبية. ورميت الحائط بالهاتف ليتطاير عدة أجزاء في كل اتجاه.

خرجت أنوي الأستوديو، لكني فكرت أن حكيم سيكون محاطا بالزبائن، ولن أجد فرصة للحديث معه، فجُلت بالشوارع على غير هدى، ثم عدت للبيت.

الوقت بعد الظّهر، الصّداع لا يفارقني، والنّوم لم يجد طريقه إلي، ابتلعت قرصين لألم الرأس لكنه لم يزدني إلا وجعا بالمعدة، نسيت أن آكل شيئا قبله. لكن ما بي كان أكبر من ذلك. استلقيت ووجه ذلك الرجل الذي دخل حياتي ليقلبها يثير حنقي، وأفكّر في تلك الغبية التي تظن بي أبشع الظنون. حتى رنّ الجرس بإلحاح.

هذه المرّة طبعا نظرت عبر ثقب العين الساحرة تفاديا لمزيد من المفاجآت، لأرى أنه حكيم، أف أخيرا.

- آه حكيم، تأخّرت عليّ كثيرا، لو تدري ما

حـدث.

- روبـي، مـا علاقتـك بالسـيد سـليم؟ (سـألني وعينـاه تتقـدان غضبـا وغيـرة)، ولعلمـك لقـد ألغـي عقـدك مـع الوكالـة بسـببه. أفهمينـي مـا علاقتـك بـذاك الرجـل؟

- أُلغي عقدي؟ آه يا ربي.

- هيّا فهميني.

- أتسـألني أم تتهمني؟

- أنـا أنتظـر إجابـة. لـم تقـول ميمـي أن أسـألك أنـت؟ ولـم هـي حانقـة عليـك هكـذا؟ كـان ذلـك الحقيـر هنـا البارحـة؟ كيـف تفعليـن هـذا بنـا؟

شـعرت بالـدوار، ولـم أعـد أفهـم ولا أجـد مـا أقـول. أمسـك حكيـم بكتفـيّ وأخـذ يرجّنـي، لـم يعُـد صوتـه يصلنـي، الجـدران تـدور وتـدور، ألقيـت بنفسـي علـى الكنبـة أو لعلّـي سـقطت إليهـا. لا أذكـر بالضبـط مـا حـدث بعدهـا، لكنـي عندمـا اسـتعدت توازنـي بعـد فتـرة مـن الزمـن، كـان قـد رحـل والبـاب مفتـوح، كنـت بمفـردي، وحيـدة تمامـا.

انهـار كـل شـيء علـى رأسـي فجـأة، حكيـم، ميمـي، سـليم. دوامّـة وغصّـة مُـرّة. توقفـت الجـدران عـن اللّـف، وأخـذت تقتـرب منـي. حاصـرت نفسـي فـي تلـك الشـقة حتـى ضـاق صـدري. فعلـت

أوّل ما خطر لي، دخلت الغرفة وفتحت حقيبة صغيرة قذفت بداخلها أول ما قابلني من خزانة ملابسي، وكل ما وجدت من مال بالدرج، وخرجت.

صفقت الباب كما فعلت ميمي، لكن لم يكن من أحد خلفي غير الصدى.

ولجت أوّل سيارة أجرة وجدتها في طريقي.

- محطة المسافرين. وددت لو أقول الهاربين، اللاجئين. رأسي لم يعد يتحدث إلي، اكتفى بترديد كلمات حكيم مرارا، صراخه، كلامه الحانق، تشكيكه المهين، بل كان على يقين أن السيد سليم أقل حقارة مني. هكذا وجدت أن أقرب صديقين لي ينظران إليّ الآن.

لم أشعر في حياتي بغربة كتلك. لم أحسّ بغيض ولا بالطريق طويلا إلى المحطة كاليوم. أين أنت يا "امّا"؟ أين أنت؟

عنابة، شوارع مزدحمة، خطى ملاحقة دوما موعدا ما، زمّارات السيارات العصبية، طريق إسفلتي منزلق بجنون تحت العجلات، أسواق مكتظة، بنايات مرهقة في انتصاب كبريائها الزّائف تحت سماء حزينة.

ليست لدي نيّة أن أكون مثالية، أنا لست دمية باربي بعد الآن، ولا أريد أن أكونها. أريد أن يكون لي الحق في أن أغضب وأحزن وأبكي. أن يكون لي صحون أحطمها لأكسر شعوري

بالحنق أو الخيبة، أو أحطمها للمتعة والمرح. هكذا فقط، دون أن يؤنبني أحد أو يلازمني شعور بذنب جريمة.

لا أحب الابتسامات المصطنعة، لا أحب الدمى دائمة السعادة أو البكاء، ولا صور الإعلانات التي لا ترمش جفونها. ولا الأسنان المبيضة كرخام الحمامات.

بي رغبة في الركض حافية على رمل شوته الشمس، وجاء الليل يعتذر إليه بنسيم يداعب قدميّ المطرزتين بنقوش حناء سوداء.

بي رغبة في التحاف شال قديم، أستنشق فيه صدر لمّيمة، وأتمرغ في حجرها الذي أمّنني وظلّ لي مهما طالت عنه ساقاي.

لا أدري إن كنت أحب البحر بعد، لم يعد بيني وبينه ذلك الانبهار، لم أعد أرغب في الحديث ولا حتى الإصغاء إليه. ربما لم يعد لدينا أسرار نتبادلها بأمان، ربما لم أعد آمنه أو أني ببساطة منحته مفاتيحي كلها، ولم يعد بحاجة لأكثر منها ليفهمني.

ربما يجب عليّ الآن أن أبتعد، أن أعود إلى هناك.. إلى البعيد لأعرف إن كنت لا أزال أحبه.. لا أزال أريده.

وحده غير المتاح يبقى مرغوبا، وحده المستحيل يظل حلما. لعلي أشتاقه، وأعود إليه كما كنت وكما فعلت أول كرة.. أجلس قبالته وأضم إليّ ركبتي، أتكور جلوسا وأبقى أرقبه، أصغي إلى صوته وأرقب ما يفعله ذاك الهدير بأعماقي.

أصغي وأتأمل عظمة الله المتجسدة في زرقته اللامتناهية. وحده إله عظيم يوجد شيئا كهذا ويودع جوفه كل تلك الأسرار والجمال والرهبة. وقلبا عميقا صامتا منغلقا على عالمه.

لم يكن لدي وقتها من أصب عليه غضبي، ما أسهل أن نشجب خيباتنا على أحدهم، أن يتحمل عنا الندم. الشعور أننا ضحية يُسهّل علينا بعض الوجع.

أحسست أن العالم خانني، أليست الخيانة ضربة غير متوقعة ممّن نحب؟ لا أقدر على استيعاب أن حكيم الرجل الذي عرفت طوال تلك السنوات، الذي يردد دوما انه يحفظني عن ظهر قلب، هو ذاته من وقف أمامي ينتظر اعترافا بعلاقتي المشبوهة مع السيد سليم. عملي بعد تمديد عقده لثلاث سنوات أخرى بعد انتهاء الخمس السنوات الأولى يلغى فجأة، من دون أن أعلم إلا في تلك اللحظة. وميمي التي لا أعرف ماذا تظن بي، ولا ما قالته لحكيم ليثور فيّ بتلك الطريقة، الجراح والضربات الموجعة تُعمي القلوب فعلا.

لِم يعد بإمكاني التحمّل أكثر، ولا البحث عن فرصة للشرح بطرق أبواب أوصدت قبل أن أطرقها. للصبر حد، وها أنذا أبلغ حدودي كلّها في لحظة.

وجودي هنا كوجه إعلاني مزيف التعابير، يبتسم كلما طلب منه بينما يوشك على البكاء، لا أحد يرغب برؤية الدموع، ولا أنا أتحمل شفقة أو فضول أحد. لهذا وُجد الأطباء النفسانيون، وُجدوا خصيصا لمن ليس لديه كتف يبكي عليه، لمن لا يملك

صدرا يرغب بضمه ليس لأنه يشتهيه، بل لأنه ببساطة يعرف حاجته لحضن محب من دون مطالب، ويكون متاحا من دون الحاجة إلى تفكير ولا إلى آلات حاسبة، ولا أرقام ولا منطق، ولا نوايا مبطّنة أو فواتير.

لذا يدفع الناس مالا مقابل شخص يستمع إلى آلامهم، عمله أن يهيّئ لهم جوّا للإفصاح الصادق، ليغادروه كل مرة أخف هما من دون أن يكونوا قد انفضحوا أو انهزموا تماما أمام غريب عرّوا له ضعفهم المقنع.

***

تقاذفتني أفكار مشوشة وضبابية إلى الصحراء، مع عدة محطات وحافلات سفر طويل وسيارات أجرة.. عودة لإيليزي.

الأيام تتداول على الفصول.. تتسابق في إبهارك أن الزمن يتحرك على غير استعجال هنا..

لم يتغير شيء كثير؛ فقط الطرقات ازدادت طولا والصغار شبابا والبيوت ارتفاعا.. ولا زالت تستقبل الزوار وأطباق العشاءات المتبادلة ليالي المناسبات الدينية والأفراح.

الحارات ذاتها، الجدران المتآكلة، الشوارع المتربة، الأطفال المتراكضون خلف كرة، جماعات صغار يرشقون الكريات الزجاجية الصغيرة ببعضها نحو حفرة في الأرض، حوانيت

المواد الغذائية التي تبيع كل شيء. مازال أهل هذه المدينة طيبين كما تركتهم، بوجوههم ذلك الرضا غير المشروط الذي لا يحتاج إلى أسباب، ولا إلى ثروة أو أي شيء، إنما ينبع من قناعة أزلية أننا لا نموت إلا وقد استوفينا رزقنا المكتوب لنا حتى آخر فلس ونَفَس. فيمارسون الرضا كرد فعل تلقائي تجاه وجودهم أحياء.

مازالت البيوت تحتفظ بأحواشها المواربة خلف أبواب نصف مفتوحة مسدلة عليها كلل من القماش يداعبها الهواء. ومازالت سيارة الجار المهترئة التي تستنجد بها كل الحارة، وتكون جاهزة متى استلزم الأمر.

دمى القماش شاخت. شاب شعرها ولم تعد تقوى على رسم تلك الابتسامة الصغيرة على وجهي.

الأولياء الصالحون أيضا على حالهم، يستقبلون الزوار والأماني والدعوات، ويستقطبون أتباعهم في مواعيد سنوية ثابتة، وفي وعدات نذرها أصحابها وأقاموها في حال نجاح هذا الولي أو ذاك في التوسط بالدعاء لله، فاستجاب.

الذبائح والرقصات الجماعية، ولثام الرجل الأزرق الذي لا يسقط أبدا خلال الوعدات أو بعدها. كتلك الوعدة التي نذرتها جدتي إن عاد إليها غائبها، كان الله قد قدّر له ألا يعود، ورفقا بها أخذها قبله، وأحال أولياءها إلى طلبات ودعوات ملحة أخرى.

روح إليزي لا تشيخ ولا تتغير. هي هي كما تركتها، لا تعكّر صفو صباحها بالجرائد. كما كانت وستبقى... تفلت

ظفائرها المقاومة للزوابع..

وحده الهقار باق على حاله..لا يراوح شموخه. تغازله الشمس في غروبها وعدا بصباح قادم.

وحده يفهم حزني..

وحده يذكرني أن أرمي أوجاعي تحت سفحه، لتتكفل بها الرياح.

وحده.. هناك, لا يشعر بالوحدة.. يسخر في صمت من كل من يتحداه بخلع الجذور ومراودة النسيان.

***

لم أعرف يوما أبدت فيه أمي سعادتها بي، غير اليوم. ولا أدري بالضبط هل سعادتها كانت بوجودي كابنتها أخيرا، أم كسبب باذخ للتفاخر أمام الجيران. لكني لا أهتم إلا بأني أسعدها، وأنا هنا لست روبي، أنا غالية من جديد. أو لعلي جئت بحثا عنها، غالية التي في فوضى هربها، نسيت كيف يتشبث الناس بدواخلهم.

جئتك يا لميمة أبحث في شذى عنبرك عني، أتحسس حضنك، حجرك الذي طالت قامتي المكتفية عنه حتى في حضوره الغائب.

تعالي يا أمي، أضم فيك تلك الطلّة الملثّمة أبدا، أشم فيك عطر يتمي. تعالي، ضميني، اصهريني على كثبان صدرك

المكوية بظهيرة شوق صيفية. وابكي.

لا أزال ابنتك، لا زال شعري ضفائر لم تفكّها الأمواج، لازال فيّ شيء من رمل، لازال فيّ شيء منك. دثّريني.

***

لطالما كانت صفية مرتبكة في حضرة الفرح، مرتعشة الاحتفاء، تحتاج ظروفا خاصة لتطمئن وتضحك، وتسترجع أنفاسها سريعا (ربي يَجعَلها ضحكة خير).

بعد عمر من الخبرات تخاف شقيقتي العواقب، لأن بعد آخر مرة ضحكت فيها، سقط ابنها وكلفه ذلك ثلاث قطب على جبينه، الندبة التي خلفها الجرح كانت كفيلة بتذكيرها أن وراء كل ضحكة كبيرة من القلب مصيبة يبيّتها القدر. كان يكفي أن تُذكّر النسوة بحادثة كتلك حتى تنفتح سيرة عظيمة لقصاص القهقهة، وشهادات لا تنتهي ومزايدات بكوارث تتنافس أولئك النسوة لذكرها، فيحتاط الجميع على الفور ويتعافى من الضحك.

(يرحم أيامك يا ميمي)، كان كافيا أن تشعري بالملل لتنتابك نوبة ضحك بملء حواسك، بملء صوتك. كنت تعانين هستيريا البهجة المقاومة للزمن. ابتسمي، ابتهجي كي تشفي من الآلام ولا تصابي بالتجاعيد. اسعدي فتخافك الأحزان، لا أقسى على مشاعر الأزمات من الاستخفاف بها.

لو شهدت صفية نوبة من نوبات ميمي لطالبت هيئات الإغاثة

الأمميـة برفـع جاهزيتهـا للتدخـل السـريع، لأنـه حتمـا سـتتوالى كـوارث قريبـا، وربمـا وقعـت السـماء علـى مـن تحتهـا.

ولكانـت ميمـي حزمـت خصـر صفيـة لتشـاركها رقصـة علـى ضربـات الوجـع الخفيـة، كانـت لتعلمهـا كيـف تكـون نخلـة حقيقيـة تتهـادى بشـموخ فـي وجـع الزوابـع.

صفيـة التـي مـا أعجـب كـم أمسـت تشـبه أمـي، قامتهـا، عصابـة رأسـها، مشـيتها المتثاقلـة، حنقهـا الدائـم علـى أولادهـا، مبالغتهـا فـي التشـديد علـى التفاصيـل، والاهتمـام بأخبـار الجيـران، ركضهـا فـي باحـة الـدار بفـردة حـذاء منزلـي خلـف ابنهـا الـذي انتـزع مـن أخيـه لعبتـه، فتعـاود انتزاعهـا منـه بدورهـا، وتداولهمـا فـي النـواح. ورثـت مـن أمـي أيضـا تلـك الشـتائم التاريخيـة ونعـت صغارهـا بأسـماء الحيوانـات حسـب مقـدار غضبهـا، والأسـف بيـن الفينـة والأخـرى علـى جهـود تربيتهـا التـي ذهبـت أدراج الريـاح تجـاه أولاد لا أمـل منهـم. أولاد يتحولـون ملائكـة فقـط عنـد نومهـم، حينهـا فقـط تنتبـه صفيـة إلـى أنهـا أم، وأنهـا أيضـا تحـب فلذات كبدهـا، فتنـدم علـى ضربهـم، وتـروح تتأكـد بحنـان مـن أن كـل واحـد منهـم هانـئ فـي غمـرة أحـلام دافئـة.

تشـبه أمـي حتـى فـي تمريـر عـود الكحـل الخشـبي بيـن جفنيهـا، وإزالـة مـا نـزل منـه عـن الجفـن بطـرف محرمـة الـرأس. وفـي قعودهـا علـى ركبتيهـا أمـام القصعـة الخشـبية، تدلـك كريـات العجيـن بيـن كفيهـا لتطوعهـا وتكـون جاهـزة متـى وصـل طاجيـن الفخـار إلـى الحـرارة الكافيـة، فتبسـط كـل كريّـة عجيـن براحـة كفهـا علـى القصعـة إلـى كسـرة دائريـة بسـمك مناسـب، ترشـقها

بعود ثقاب، وتستمر في تدويرها وقلبها متى ألقتها في الطاجين وبدأ سطحها التحتي بالاحمرار نضجا على نار كانون متقد.

يميّز إيليزي، الأبواب المتثائبة منذ بدايات المساء، الأحلام الصغيرة، الرغبات المستحية، أطباق عشاء المواسم الدينية المتبادلة، الصباحات الطيبة، زوابع الرمل الدوارة، دعوات الأمومة الجماعية، الابتسامات الناصعة الملثّمة، وبرّاد اتاي يكتوي على جمر غير مستعجل.

وشمس تبارك الكثبان كل يوم، تُقبّل جبينها العالي ثم تستسلم لها في انصهار أزلي.

***

لم يسأل أحد لم أتيت، ربما كانت عودتي التي فهم الجميع أنها زيارة عائلية بديهية، كان هذا مريحا لي، إذ لا أملك من الأجوبة الكثير حتى لنفسي.

أخذ الجميع يدلّلني كضيف عزيز، غير أنّي لم أكن أريد إلا أن أتكوّر في فراشي وأناااااااااااااااام. غرفتي القديمة غيرت ملامحها، احتلّها سفيان وعروسه، بعد أن أعاد طلاءها وتعديلها وتأثيثها بغرفة نوم خشبية، وأغلق بابها على عشّ زوجية لا أعرف كيف يمكن لامرأة أن تسعد فيه مع رجل مثله. لكني غيّرت رأيي عندما تعرفت عليها وأدركت مباشرة أن الطيور على أشكالها تقع

لم أكن قد أعلمت عائلتي بزيارتي المفاجئة، لكنهم فور

وصولي انطلقوا في إعلام بعضهم، جاءت صفية وأولادها والأخوال والأعمام لرؤيتي بعد سنوات غيبتي، غزا الشيب رؤوس بعضهم، بينما طالت قامات بعض أبنائهم، غير أن ابتساماتهم المحبّة على حالها. رغم إعيائي الشديد ونعاسي الذي يشابه الدوار، شعرت أني اشتقت جدا إليهم جميعا، وإلى جَمعتهم دفعة واحدة.

ربما نمت أثناء توسّدي فخذ أمي، والجميع يتحادثون ويضحكون، فتحت عيني لأجد بطانية تغمرني، خرج الكلّ من الغرفة وتركوني أرتاح. أعدت إغماض عيني أتمسك بمخدة الصوف تلك مخافة أن أستيقظ من جديد فأجد أني حلمت بحجر أمي.

لم تترك نساء العائلة والجارات أي أُكلة أو طبق تقليدي إلا وطبخنه وأرسلنه لي طوال أسابيع من عودتي، من سيقنعهن أن نحافتي لزوم عمل وليست عارضا مرضيا، أو أني كنت أعاني المجاعة حيث كنت. لا يعلمن أن هذا الخصر استلزم مني نظاما غذائيا صحيا قليل الحريرات وطويل المدى، وأشهر مديدة من التردد على صالة للرياضة النسائية، ومقاسات أراقب بها النتائج آخذها لنفسي كل أسبوع لأعرف تحديدا تأثير جهودي على شكلي. ولولا قامتي التي لا تتجاوز سبعا وستين سنتيما فوق المتر لكنت عارضة أزياء كاملة المواصفات برأي حكيم. لا أذكر أنه رأى فيّ عيبا يوما عدا السيد سليم، ولا أدري إن كان ما يزال على رأيه، لا طريقة لأعرف. أو أستقصي عن حاله، بعدما تركت حطام هاتفي مشتتا بتلك الشقة. تراه

أدرك خطأه معي بعد ذلك!

استفهامات متداخلة كانت تراود تفكيري فأسرح، أشعر بالحيرة إذ رجعت إلى الحاضر حيث أنا، فمن كان يدري أن الأقدار ستعيدني إلى هنا بعد كل تلك السنين.

لم تسمح لي الظروف أن أحمل الهدايا لأحد، ولأني أردت إسعاد الجميع وردّ بعض جميل احتفائهم بي، قررت أن أفعل لأجلهم شيئا، قصدت مكتب البريد رفقة أمي لسحب مبلغ مالي من حسابي، فلم أكن أفكّر بتوفير ما لدي من مال لأيام الضيق بمنطق أمي، بل كان ما يهمني أن أدخل الفرحة على تلك القلوب الطيبة التي منحتني الأنس الذي كنت بأمسّ الحاجة إليه. "أسعد غيري فيبعث الله لي فرحا من حيث لا أدري" كما كانت تقول جدتي "رحمها الله"، زرت قبرها في اليوم الموالي لوصولي، وكيف لا أفعل، جلست على حافة تربتها المبللة أحادثها همسا، وبكيت في حضنها طويلا. أمي التي تغيرت كثيرا منحتني مساحة كافية من الخلوة معها، أودعتها بعض ما آلمني وشعرت أنها طمأنتني أن كل شيء سيكون بخير، وعليّ فقط أن أثق بذلك، فالله لا متناهي الكرم لا يكفّ عن العطاء.

اشتريت بمساعدة أمي الكثير من قطع القماش والشالات والألبسة والألعاب، كل حسب سنه وقربه لي، ووزعت مقتنياتي مساءً على الجميع في ما بدا مهرجانا من البهجة، تذكرت أبي وطفولتنا وهداياه، وبقيت أتفرج وأستمتع بذلك الكم من الفرح الذي تبقى حفنة من المال قادرة على تفجيره ينابيع من الامتنان

والدعوات والضحكات الصغيرة.

بعد ما يقارب الشهرين، جاء اتصال لصفية من ميمي، وجدت رقمها بشريحة هاتفي المحطم. تريد الحديث إلي، لكني طبعا لم أكن جاهزة لدخول مواجهة معها. بعد عدة محاولات يائسة، أرسلت رسالة نصية، تخبرني فيها أن حكيم في حال سيئة، إنه يُغرق نفسه في الشرب وتوقف عن العمل. ولا أحد يستطيع له شيئا غيري. ماذا عساي أفعل له وقد كان له أن يوفر على كلينا كل هذا العذاب ببضع دقائق يصغي إلي فيها قبل أن يُعدم ثقته فيّ. ميمي كانت قد أفهمته أن السيد سليم أحقر من قد يعرف، وأنه أعطاها موعدا زائفا تلك الليلة ليضمن وِجودي وحيدة بالبيت، ليأتي بهداياه ولولا أني رفضتها ورميتها لما كانت قد وجدتها وقرأت تلك البطاقة داخل أحد الأكياس التي لم أكن قد فتحتها، ورميتها بكل محتوياتها، وإلا لكنت عرفت أن بإحداها سوارا ذهبيا. كان قد أخبرني عنه السيد سليم، لكن ذلك آخر ما يهمني. طبعا ندم حكيم على اتهامه غير المعلن لي، وصدمه رحيلي المفاجئ وأخذ يفكر كيف يعيدني وقد جرح كرامتي وهدم الثقة بيننا. انهار ووصل للحال التي وصفتها ميمي.

كنت أحتاج مزيدا من الوقت لأشفى من تلك الحادثة، لم أعاود الاتصال لأسأل عن حال عنابة في غيابي. أبحث هنا عن أقصى ما يمكنني لأتمتع ببقائي، باسم غالية وحضور روبي. زرت كل الأماكن التي أستطيعها: الأولياء الصالحين، الحمّامات الطبيعية، وحتى الرمال، ركبت جملا وشربت حليب النوق،

لعبت بالكريّات الزجاجية ولم آخذ صورة واحدة، اكتفيت من الصور، حاولت أن أعيش اللحظات لأستمتع بها فحسب، وإن حدث ونسيتها في اليوم الموالي كفاني أني تشرّبت سعادة أن أكون هنا أتفرج على كل هذا الجمال كأني سائحة، أو كأعمى رُدّ إليه بصره حديثا.

عدت وتعودت على تشارك الناس غرف النوم بعد كل تلك الاستقلالية، أمي كانت شريكتي هاته المرة، بدت لي أكبر همّا من عمرها، لم أفهم ما الذي قد يُتعبها وقد أحاط بها أولادها وأحفادها من صفية، زوجة سفيان أيضا تنتظر طفلا، حالها المادية كانت مرتاحة بمساعدتي، صحتها تبدو جيدة، لكن أمرا ما شعرت بأنه يدور في أذهانهم ولا أحد يفصح لي به حتى بعد ثلاث أشهر من تواجدي بينهم، لا شيء غير إحساسي قد أبدأ به نبش الغموض الذي يحيرني لأعرف الحقيقة، غير أنها أتت إلي.

في مساء متأخر، وبينما الجميع في أفرشة نومهم، طرق قوي يهزّ الباب.

- من؟ سأل سفيان هلعا.

إنها صفية، تحمل أصغر أطفالها وتتلحّف شالا ودمعها يحفر أخاديد بخدّيها.

عرفت فيما بعد أن تلك الواقعة ليست مفاجئة، زيارات صفيّة الباكية تتكرر كل فترة، تأتي مجرجرة خيباتها وصغارها إلى بيت الأهل، تمكث فترة كافية لتبدأ آثار الضرب بالتلاشي،

زوجها كان يفعل بها ذلك كلما وصل بهما نقاش إلى الأسوأ، ينتهي بهما الأمر إلى إيصاله إيّاها إلى أمّها، لتأتي أمه بعد أيّام لإعادتها محافظة على العائلة، وتفاديا لتيتّم الأولاد.

لا أكثر يتما من شرخ بين أبوين يتفرّج عليه أبناؤهما كل يوم يتوسع، لكنّ كلام الناس والتقاليد تجعل أمي تفضّل مواساة صفيّة وردّها إلى فحلها كلّ مرة.

ما كنت أعرف طريقة سير الأمور، أبديت سخطي عليه ورحت أفكر في كيفية مساعدة شقيقتي وتخليصها من غبنها، لكنها لم تكن متحمّسة لأكثر من البكاء. بعد أن نفدت مني جميع خططي، استدرت للحائط ورحت أفكر متناومة عن حنقي على ضعفها. بينما بقيت هي وأمها تتحادثان حول الموضوع وتثقان أنهما لن تفعلا أكثر من ذلك. لم أكن قد استطعت النوم حتى بعد مرور حوالي ساعتين وأنا على حالي وظهري إليهما. انتهى إلى سمعي همسا أنه يكفي أنه كان سببا في يُتمنا ليعود ويُيتّم أطفال صفيّة. ولم أفهم لحظتها عمن تتحادثان وكيف كان سببا في تيتّمنا وأبونا مات بعيدا في سجون ليبية لأنه كان يتاجر بأسلحة مهرّبة. ما علاقته بموت أبي. كنت قد سمعت هذا الكلام صدفة لأرقي، بعدها أطرقت أصغي علّي أفهم.

كانتا تقصدان صهر العائلة، ما كانتا تُسرّانه أنه وشى بأبي وكان سببا في سجنه. لم يعد يهمني بعدما سمعت متى حصل ذلك وكيف، بل أن تينك المرأتين تعرفان بالأمر، صفية لازالت زوجته رغم ذلك، ربما كان هذا سبب حياتها الزوجية البائسة،

لكنها معه في النهاية. أمي أيضا تعرف، وتُبقيه صهرا لها. لم أعد أفهم شيئا.

شعرت أن دوامة انكسارات متحركة تسحبني إلى أسفل، لم تكن بي رغبة للمقاومة، ولا جهد للاستنجاد.. لم يبق لي من ألجأ إليه.

بقي ما عرفت ليلتها يُسمّمني، وجدت نفسي أضيع من جديد.

على عكس ذلك الزمن صار للأحلام أثمان باهضة، صار لليل مخالب تترصد العيون الأرقة، الليل الذي يبدو لي الآن أكثر حلكة من أي وقت آخر.. لعل حكيم يجلس هناك الآن يستعيدني على أضواء تلك المدينة المكابرة التي تحاول خداع نفسها كل مساء، فتقعد أمام مرآتها لتحاول رسم ابتسامة أكبر كل يوم، لعلها تقنع الساهرين معها حتى الفجر أنها أقل تعاسة، هم الذين لا يقلّون عنها نفاقا ووحدة..

يستعيدني بعد أن يتجهز لحضوري كأنما سآتي.. يجهّز لي روب الحمام والثوب الذي أحب، ويتحضّر ليلفّني بموجة من عطري المفضل، ويسدل شعري نصف المبلل..

يقعد هناك، يحضن رُكبتيه قبالة باب كان يقذفني إليه..

للانتظار مزاج متقلب وله صوت.. يدندن، يغني، يهمس ويصرخ. له عيون تتلوّن أحيانا، تتلبّد، تضحك، تراود، تتآمر وتبكي..

للانتظار ذراعان طويلتان تلمّان إليه ركبتيه، وتحضنانه قبالة باب يعرف مثلنا أني لن آتي قريبا، لكنه سعيد بتحسس دفء أناملي التي مرّت بمفاتيحه يوما.. كيف أقنعه أن الأبواب لم تعد تعنيني. بأن خطوي لن يؤنس طرقاته بعد الآن. ذلك الباب العنيد.. لعلّي حين آتي أقنعه عنه أني لم أعد أجيء.

لا مكان آخر أهرب إليه. ليت أبي يفتح الباب الآن، ويسارع لنجدتي لكن .....